المؤسسة المصرية العامة للأدوية



تأليف

الدكتور فهيم أبادير

المؤسسة المصرية العامة للأدوية
والكيماويات والمستلزمات الطبية

من تاريخ الطب عند العرب

فهرس

مقدمة

إن دراسة تاريخ الطب عامل هام فى استجلاء ما غمض من أسرار الطب ، فالأمراض الآن مع تقدم طرق الوقاية أصبحت معظمها نفسية تؤثر فى الجسم psychosomatic فكلما رجعنا إلى الماضى لتفهم أسراره سهل علينا معرفة الحاضر ، وتاريخ الطب ليس جزءاً من تاريخ العالم ولا هو بعث لصور الحضارات القديمة ، بل إنه فى الواقع دراسة مكملة لعلم الطب وحل لمشكلاته العديدة ، وأن الطبيب المؤرخ الذى يتوخى إظهار الحقائق من جراء هذا البحث يسعى بدوره إلى تقدم فن الطب .

هذه نظرة خاطفة فى الطب عند العرب ، وقد بذل الأطباء الفلاسفة العرب كل مافى وسعهم لتخفيف آلام المرضى وتشخيص الأمراض وعلاجها واتخاذ طرق الوقاية ثم إسداء النصح لطلبتهم مما جعل من أقوالهم مأثورات خالدة ، فقد كانوا حقاً هم الأوائل فى إحياء فن وعلم الطب فى زمن ساده الجهل والفوضى والغموض العلمى .

وإنى أرجو صادقاً أن يكون فى سيرة هؤلاء الرواد حافز لطلاب العلم والمعرفة للبحث عن آثار أجدادهم حتى تبين لنا صورة مكتملة عن نشاطهم العلمى فيتم بذلك سد الفراغ الكائن فى خزانة الطب عند العرب .

فهيم أبادير

تمهيـــد

تعنى كلمة الطب فى أوسع معانيها فن رعاية المرضى أو المصابين بأذى أو المتألمين وعلاجهم ، والطب من أعرق المهن فى التاريخ ومن أنبلها ، وعلى بساطة أصوله الأولى المشوبة بالغموض والسحر والجهل ، فقد قام الطب دائماً على الرغبة فى تفريج كرب الآخرين .

وتاريخ الطب قديم جداً ، إذ أن الطب وثيق الارتباط بحياة الناس التى تعود إلى مئات الألوف من السنين ، بل هو أبعد من ذلك كثيراً ، إذ أن الحياة فى عالمنا هذا تعود إلى ملايين السنين قبل ظهور الإنسان ، وقد أثبتت الأبحاث على أن الأمراض ظهرت مع ظهور الحياة فى هذا العالم .

يتبين من هذا أن الأمراض قديمة العهد قدم الحياة ذاتها ، ولا غرابة فى ذلك فما الأمراض إلا جزء من الحياة نفسها تحت عوامل وظروف متغايرة متباينة تظهر نتيجة لرد فعل الجسم ضد الطوارئ والملابسات المحيطة به .

أمكن الإنسان البدائى أن يحتمى من الحيوانات وأن يعالج مايصيب جسمه من جروح أو كسور ، ولكنه احتار فى الأمراض التى تنشأ فى داخله دون سبب ظاهر معقول لديه ، فتؤلمه وتشقيه ثم توديه موارد الهلاك ، فهداه عقله أن يعلل هذه الأمراض الطارئة عليه بأرواح الشر التى تدخل جسمه ، أو بانتقام الموتى أو بغضب الآلهة ، ومن ثم لجأ فى علاج هذه الأمراض إلى السحر ولجأ إلى الدين ولجأ إلى التعاويذ والرقى ولجأ طبيبه الساحر الكاهن إلى استخدام الإيحاء مع الدجل والشعوذة .

إنه من الظلم أن نحكم بمعلوماتنا وطرق معارفنا الحاضرة على أى نوع من أنواع الطب القديم الذى عاش فى ظل عقائد تختلف عن عقائدنا وآراء بعيدة عن آرائنا وطرق فى الحياة لا صلة لها بطرقنا الحاضرة .

لقد أدرك الأقدمون الكثير من أسرار النفس البشرية مما ساعدهم فى علاج أمراض الجسم ، فكان الطب الجثمانى وثيق الارتباط بطب النفس ، وهذان

اتحدا فى العصور الأولى بالدين وبالسحر ، وقد عرف كهنة قدماء المصريين العلوم النفسية واستخدموها مع الدين فى علاج الأمراض ، وكانوا يرددون الرقى والأناشيد لتدخل الأمل فى نفوس المرضى قبل مباشرة العلاج ، لأنهم كانوا يؤمنون أن تهيئة حالة المريض النفسية هى أهم عامل فى الشفاء . فإيمان المريض كان بالأمس كما هو اليوم من أهم وسائل الطب لرفع الروح المعنوية له ولتعزيز قوى الدفاع الطبيعى فيه . والطبيب الذى لا ينال ثقة مريضه لا يزال معدوداً من أفشل الأطباء .

نرى من هذا أن فلسفة العلاج فى العصور القديمة كانت ترجع إلى قوة الإيحاء ، بينما نحن الأطباء اليوم لا نستغل هذه الطاقة الكامنة والقوة الخفية ، لأن فلسفة الطب فى الوقت الحاضر تقوم على توطيد الأسس المادية فى التشخيص والإكثار من العقاقير فى العلاج .

إن مصر القديمة كانت ولا شك مركز الطب والثقافة فى العالم القديم ، وكان بها أقدم الجامعات فى تاريخ البشرية ، ولقد عرف المصريون قيمة الصحة الشخصية والنظافة . ومن الخطأ أن يظن أن أطباء الأغريق كانوا أول من أرسى الطب على القواعد الحديثة من حيث قيمة ملاحظة المرضى والإقلال من تناول العقاقير ، فالأطباء المصريون كانوا أساتذتهم فى هذا المجال فعكفوا على استخلاص تاريخ المرض وفى فحص المريض وتشخيص الداء والحكم على سيره وكانوا يعالجون بالرقى وبالصلوات أحياناً لوضع المريض فى الإطار العقلى الذى يساعد على شفائه . وكانوا يعالجون بالدواء أحياناً وبالحمية وبالراحة فى بعض الأحيان ، وكانوا أول من اكتشف الكثير من العقاقير المستعملة الآن .

أما الطب عند العرب فلم يكن فقط خلاصة طب مصر القديمة والإغريق بل إنهم وضعوا أساس الطب الذى عاشت عليه جامعات أوربا حتى مطلع القرن الثامن عشر .

جاء الإسلام وجعل النظافة من الإيمان ، وكان أول مشرع للحجر الصحى السليم إذ قال « إذا كان الطاعون فى بلد أنتم فيه فلا تخرجوا منه وإذا كان فى بلد وأنتم خارجه فلا تدخلوه » .

لقد عرف الأطباء العرب أمراض العيون وبرعوا فى علاجها ، ولهم فضل السبق فى وصف كثير من الأمراض كالحميات والجدرى والحصبة ، وعالجوا الروماتزم.واستعملوا الخيوط الجراحية ، وأنشأوا الصيدليات والمستشفيات ، كما ألفوا الموسوعات الطبية والعلمية التى ظلت المراجع الوحيدة فى العالم حتى عصر (النهضة) الرنيسانس وبعده .

وسوف نلم الآن بقليل من تاريخ الطب حتى ازدهار الطب العربى .

الطب البدائى

يرجع رجال العلم حياة الإنسان إلى أواخر العهد الحديث المتأخر ، وعلى هذا الأساس يكون تقدير عمر الإنسان لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠ عام ، وحدث فى ذلك الوقت أن طرأ على أوربا ما يعرف بالعصر الجليدى ، واعتصم إنسان ذلك العهد فى الكهوف ، وبعد انحسار الجليد ودخول أوربا فى طقس معتدل ظهرت نهضة فنية فى ذلك الإنسان ، ودون الرسوم على جدران كهوفه . فهناك رسم فى مغارة بنوال لحيوان الماموث ميز فيه الفنان موضع القلب بعلامة سوداء . وقد علمنا من طريقه دفن موتاه أن لديه معتقدات دينية ، ولا غرابة فى ذلك فالحياة الشاقة التى كان يحياها وظروف الطبيعة القاسية المحيطة به جعلته يعتقد بوجود حياة أخرى بعد الموت . ولذلك كان يستعمل الطفل الأحمر (المغرة) يدهن به موتاه رمزاً للون الدم الذى كان يعتقد أنه أساس الحياة ، كما كان يدفن معهم بعض الأدوات الحجرية التى كانت تستعمل أثناء الحياة ، وبهذا آمن بالبعث . وهناك نقش على قطعة من عظم الرنة يبين ذلك الحيوان وهو يخطو فوق امرأة حامل فى حالة الوضع ، ولا بد أن الغرض من هذا الحفر هو مساعدة عسرة الولادة . فربما أسرعت فى وضعها كما يسرع ذلك الحيوان فى عدوه ، وهناك نقوش غير ذلك تعرب عن أن الحيوان القوى يمنح عن طريق السحر قوته إلى المريض . وهذا أقدم ما وصل إلينا من تاريخ الطب (ويمكن مشاهدة تسجيل لهذه النقوش وغيرها فى قاعة الإنسان البدائى فى متحف الإنسان بباريس) .

هذا ولا بد أن الغريزه البدائية للإنسان لعبت دوراً هاماً فى المحافظة على صحته وفى شفائه من أمراضه ، فلا بد أن هـــذا الإنسان قد جرح أثناء صيده للحيوانات ، ولا بد أنه أدرك أن استمرار النزيف مميت ، ومن ثم اكتشف لنفسه طريقة لإيقافه ، إما بواسطة الضغط على موضع الإصابة ، أو بإحكام رباط أعلى الجرح (بين الجرح والقلب) ، ولا بد أنه عالج جروحه بتغطيتها ببعض أوراق الأشجار ، ولا بد أن قرينته وقد علمتها الطبيعة ودربتها لتضع مولودها بمفردها ، ساعدت بدورها إبنتها أثناء وضعها ، ولا بد لهذه الزوجة وقد طهت لزوجها طعامه ، أن تتمكن كذلك من أن تمزج له من الأعشاب وتنتج شراباً يصلح من أموره إذا ما اعتلت صحته . ونحن مدينون الإنسان البدائى بمعلوماتنا التى حصلنا عليها بخصوص كثير من العقاقير التى نتداولها مثل الأفيون والكينا والكافين وغيرها .

وقد نجح ذلك الإنسان فى معالجة الكسور وفى انتزاع السهام من موضع إصابتها فى الجسم ، وهناك جماجم ظهر فيها آثار إجراء عملية التربنة بواسطة آلات جراحية دقيقة من الصوان

كان إنسان العهد الحجرى يصاب بمضاعفات الأمراض الروماتزمية ، غير أنه ليست لدينا معلومات أكيدة تكشف لنا عن علاجه لهذه الأمراض ، ولكن لا بد أن هذا الإنسان علمته التجارب وهدته الغريزة إلى طرق مهدت له سبل الشفاء ، وكان الألم ولا يزال هو الحافز الأكبر الذى يدعو المريض للمبادرة بالعلاج . وكان الإنسان البدائى على جانب من الفطنة وقوة الملاحظة ، شاهد الحيوان الذى أصاب قدمه شظية أو شوكة يحاول استخراجها ، ثم يلعق مكانها فقلده (ونحن نفعل هذا تماماً الآن) ، وكان يعتقد فى حياة أخرى بعد الموت ، ويشعر بقوى خفية تنظم العالم فنسبها إلى الأرواح أو الآلهة ، وكان السحر هو الأساس الذى بنى عليه جميع تصرفاته فى الحياة ، حاول التعمق فى أسباب الأمراض فهداه تفكيره إلى إيجاد صلة وثيقة بينها وبين السحر والدين . لم يمكنه التفرقة بين الطب والسحر والدين ، فأصبحت له عبارة عن شىء واحد يجب أن تعمل معاً بانسجام حتى تقيه شر القوى الخفية الشريرة التى كان يشعر أنها رابضة له بالمرصاد وبأن الأرواح تحيط به تتلمس منفذاً إلى جسمه للإيقاع به ، فكان

دائما على حذر ، شديد الإيحاء والظنون فاذا نزلت بعض زوجاته إلى الماء واختطف التمساح إحداهن اعتقد أن الباقيات أوقعن بها عن طريق السحر .

كان يؤمن أن الأمراض العادية هى من مستلزمات الحياة ، أما إذا أصابته أمراض مصحوبة بآلام حادة كالتهاب البلورا أو روماتزم عضلى أو مفصلى ، كان يعتقد أن هذه الأمراض نتيجة السحر ومن تأثيره ، وإنه لمن دواعى العجب أن نجد أنهم يطلقون فى ألمانيا والنمسا حتى الآن على آلام الروماتزم الحاد كلمة « إصابة الساحرة » Heyenschuss .

كان الانسان البدائى يعتقد أن الجسم مكون من جزئين أحدهما مادى والآخر شفاف أثيرى، نطلق عليه اسم « الروح » وكان يعتقد أن الروح تفارق الجسد فى حالات النوم والغيبوبة والموت ، ولكنها تعود للجسم فى الحالتين الأوليتين ولا تعود إليه فى حالة الموت ، كان يخشى الموتى ويقوم بأداء واجبات التكريم لهم بدفنهم وتقديم الأطعمة وغيرها بغية استرضائهم حيث كان يخشى عودة روح الميت لإيقاع الأذى بأحد الأحياء » بل يذهب البعض إلى القول بأن ركام القبور الذى تحول فيما بعد إلى الشاهد والأبنية الرخامية كان الغرض من وضعه على القبور زيادة الثقل على الميت للحيلولة بينه وبين مغادرة القبر .

أما الطبيب الساحر فى ذلك العصر فكان يتمتع بسلطة قوية ويعمل ما يشاء لأنه كان الواسطة بين المريض وبين الأرواح التى كانت تتحكم فيه وكان يقدر على طردها من جسم المريض . وكان كل فرد من أفراد القبيلة يحنى ركبته لذلك الطبيب ويتوسل ويتضرع إليه وسواء شفى أو لم يشف يجب عليه أن يقدم شكره للطبيب الســـاحر .

وكان الطبيب حتى فى أيام بابل (حين كان المرض يعتبر عقابا للخطايا) له حظوة ومكانة عليا كالساحر والكاهن فلم يجسر أحد على حسابه عن خطأ ارتكبه فى التشخيص أو فى العلاج بعكس الجراح لأنه يعمل بيديه فكان يحاسب على أخطائه ، فهناك شريعة حامورابى حوالى ٢٠٠٠ ق . م تقول : فاذا مااستعمل المشرط البرونزى وأخطأ فى استعماله فتقطع يده ، وإذا تقاضى أتعابا أكثر مما يستحق فيعاقب بحبسه .

هذه بعض من معتقدات الانسان الذى نشأ على الفطرة فى الطب وفى الأمراض وليس لنا أن نحتقر تفكيرهم أو نهزأ بمعتقداتهم ، فان هذا التفكير وهذه المعتقدات هى النواة التى نبتت منها حضارتنا .

لم يكن هذا الانسان يدرى حتى هذا الوقت شيئاً عن الزراعة ويقال إن انتظام فيضان النيل عاما بعد عام ، كان عاملا للفت نظره إلى أن القوت يمكن إنتاجه كما يمكن جمعه ، وهكذا بدأت الزراعة وتبدأ الحضارة القديمة .

الطب عند قدماء المصريين

إن التاريخ المدون نشأ فى أرضنا التى تتوقف حياتها على فيضان النيل وانخفاضه وقد تكونت الأسرة الأولى من حوالى ٥٠٠٠ سنة ق . م وبعد مضى ٤٠٠ عام من ذلك التاريخ تحولت النقوش التى كانت تدل على معنى مقصود إلى لغة مكتوبة ثم اكتشف قدماء المصريين أن سيقان نبات البردى يمكن تحويلها إلى أوراق للكتابة عليها ، كما وجدوا أن مزيجاً من الهباب الأسود والصمغ والماء يكون مادة للكتابة ، وبهذا ابتدأ التاريخ المدون .

إن معلوماتنا الغزيرة عن حياة المصريين القدماء وعن أعمالهم نبعت عن معتقداتهم العميقة فى الخلود . ولم يعتقدوا بخلود الروح فقط بل آمنوا أيضا برجوعها يوما ما إلى الجسم الذى تركته لاستئناف الحياة مرة أخرى ، ولذلك كانوا يجتهدون بالمحافظة على جسم المتوفى وكذلك على ممتلكاته الخاصة .

وكانت مقابر ماقبل الأسرات عبارة عن حفر بسيطة على حافة الصحراء ، وكانت الجثة توضع على جانبها الأيسر ورأسها متجهة إلى الجنوب ، أما الركبتان فثنيتان على مستو واحد من الجزء الأعلى من الصدر ، واليدان مشبكتان أمام الوجه (وهذا أقرب مايكون إلى وضع الجنين فى الرحم) وإلى جانب الجثة يوجد عدد من أوانى الفخار تملأ بأنواع الطعام وكذلك بعض الأدوات المنزلية ، وبهذا احتفظت تلك الجثث فى رمال الصحراء بكيانها ألوف السنين .

ثم بدأ المصريون بتحنيط الجثث وقد تغيرت طرق التحنيط على مدى العصور . ولم تكسبهم عملية التحنيط معلومات فى التشريح ، ولكن على كل حال كانت رسوماتهم المدونة لأعضاء الجسم فى غاية الدقة .

إن معلوماتنا الأساسية عن الطب فى مصر القديمة وعن الأمراض فيها مستمدة من لفائف البردى الطبية ، وقد اكتشف منها عدد قليل ، وكذلك من النقوش والتماثيل وما حوته القبور من عظام وموميات وغير ذلك . وكان جفاف الحفر وطرق الدفن والمعتقدات الدينية من العوامل التى ساعدت على حفظ هذه المعلومات .

وقد أمدتنا أوراق البردى الطبية بمعلومات قيمة عن الطب والأطباء وعن الأمراض . وعدد هذه البرديات ثمانية سميت ؛ بأسماء مكتشفيها أو أصحابها أو المدن التى تحفظ فيها وأهمها بردتى أيبرز ، وأدوين سميث وما جاء على سبيل المثال فى بردية أيبرز وصف رائع للذبحة الصدرية « إذا فحصت مريضا بالمعدة يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته . . . فقل بصدده هذا شىء (أى روح) دخل من فمه والموت يهدده » .

أما بردية أدوين سميث فمعظمها جراحى وتحتوى على ثمانية وأربعين مشاهدة فى جراحة العظام والجراحة العامة ، مرتبة تبعا لتقسيم الجسم ابتداء من الرأس والأنف والفك ثم العنق وهكذا إلى أسفل . وقد ذكر فى هذه البردية طريقة علاج كسر الترقوة وكذلك رد خلع الفك السفلى (يعالجان الآن بنفس الطريقة !!)

كانت أهم العلامات المميزة للطب عند قدماء المصريين صلته بالدين ، فكان هناك عدة آلهة لشفاء الأمراض . وكان نصير الأطباء هو الإله « توت » ، وكانت الآلهة « إيزيس » يتضرع اليها لشفاء الأمراض المستعصية وقد امتدت عبادة ايزيس أيام الأمبراطورية الرومانية وشملت العالم الغربى كله ، (وكانت تمثل بشكل سيدة جالسة وأحيانا وهى تحمل ابنها حورس على ذراعيها) ولا ننسى « أمحوتب » الطبيب المصرى الذى عاش حوالى ٢٧٠٠ ق . م وقد اعتبر إلها بعد وفاته ، وقد كان وزيراً ومهندسا وطبيبا فى بلاط الملك زوسر (ويمثل بشكل طفل جالس يحمل قرطاسا من البردى على ركبتيه) .

إن المتصفح للبرديات الطبية يظن لأول وهلة أن الطب المصرى القديم كان تحت تأثير السحر والرقى والتعاويذ ، نظراً لتكرار الأدعية بها ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إنه لا يمكن قطعا علاج قدم به كسر بواسطة السحر والرقى ، إنما يمكن

شفاء مرض باطنى مستعصى بهذه الطريقة ، لأن أى تغيير فى حالة المريض العقلية تؤثر بدورها على حيوية الجسم فى مقاومة المرض وبالتالى شفائه . فإذا حكمنا وعدانا يمكن أن نقول إن جزءاً كبيراً من الأمراض الباطنية يكون عامل الايحاء والتأثير النفسى له الفضل الأكبر فى شفاء المريض . ونرى هذا الآن فى إيمان بعض المرضى بالقديسيين والأولياء فى شفائهم من أمراضهم .

وكان الكهنة أول من مارس مهنة الطب، ثم نشأت فئة الأطباء من غير رجال الدين، ثم انقسمت هذه الفئة إلى درجتين إحداهما وسيلتها السحر والشعوذة ، أما الثانية فكانت تعتمد فى علاجها على العقاقير والجراحة وظهر فيها الإخصائيون .

وإلى الكهنة يرجع الفضل فى إدخال كثير من الوصفات الصحية بحجة الدين مثل حظر أكل لحم الخنزير والبجع والصيام أربعون يوماً كل عام مع تجنب العلاقات الجنسية وتعاطى السلامكى كشربة مرة كل شهر والاستحمام يوميا . وإزالة الشعر الذى ينمو على الجسم .

ومع ذلك كانت عقائد الكهنة الحقيقية أسراراً لاتفشى إلا للإخوان المكرسين.

وكان عدد الأطباء كبيرا وكانوا على جانب عظيم من المهارة وامتدت شهرتهم إلى البلاد المجاورة .

أما عن الجراحة فكانوا أول من أجرى عملية الختان كما ثبت ذلك من النقوش وكانت الجروح النظيفة تعالج بالخياطة وبالأربطة اللاصقة ، والجروح الأخرى تعالج باللحم الطرى أول يوم ثم بالعسل والأعشاب القابضة .

أما الكسور فقد عولجت بنجاح واستعملت الجبائر فى علاجها .

وكان لدى قدماء المصريين عدة طرق لتشخيص الحمل ومعرفة نوع الجنين .

وكان لدى الطبيب المصرى طرقا عديدة لاستخدام العقاقير كما تستخدم الآن. فكانت تعطى كشراب مكون من مزيج من عدة عقاقير مع اللبن أو النبيذ أو البيرة ، وكانت تعطى أحيانا كحبوب مع عجينة الخبز . كما استعملوا المراهم فى علاج الأمراض الجلدية . وكان الذين يعالجون العيون عددهم كبير . وقد استعمل الطبيب المصرى عددا وافرا من العقاقير من المملكتين المعدنية والنباتية . واستعمل قدماء المصريين أملاح النحاس والقصدير بكثرة ولكن الأعشاب

كانت هى أساس الفارماكوبيا لديهم وبالأخص الخضراوات والمأكولات المتداولة فى البيوت كالفول والبسلة والبصل والكرات والتين والبلح والعنب. وهناك كثير من الأدوية التى نستعملها الآن وصلت إلينا عنهم.

وهكذا نرى أن قدماء المصريين حرصوا على حمل الشعلة والاحتفاظ بها حتى وصلت إلى بلاد الإغريق.

الطب عند الإغريق

ولما فقدت مصر وبابل استقلالها بعد ظهور دولة الفرس وغزوها لمصر فى القرن السادس قبل الميلاد، انتهى بذلك العصر الشرقى المجيد الذى بنيت على أطلاله كل الحضارات التى تلته، ثم انتقل مركز العلم إلى بلاد الإغريق.

دخل الإغريق مصر وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٢٣ ق.م وتأثر الطب بالنفوذ الأجنبى ولمع نجم مدينة الاسكندرية حين أسس بطليموس الأول جامعتها المشهورة ومدرستها الطبية، ونقل علماء معبد ومدرسة هليوبوليس إليها.

وبكل أسف اندثرت معظم آثار هذه المدرسة الطبية القديمة ولم يصلنا من أخبارها سوى النذر اليسير. ومن أنبغ علمائها فى الطب هيروفلس حوالى ٣٠٠ ق.م، وكان أول من قام باجراء تشريح الموتى للدراسة المنظمة، وله مؤلفات فى التشريح وأبحاث فى الطب وكفيلسوف له أقوال حكيمة منها «إن الطبيب الماهر هو الذى يعرف أن يفرق بين ما يمكن وما لا يمكن عمله». «إن العقاقير تبدو لا قيمة لها إذا أسيء استعمالها ولكنها تصير كأيدى الآلهة إذا ما استعملت بحكمة وتعقل».

ثم تضاءلت مدرسة الاسكندرية، وكانت الأحداث السياسية هى العامل الأكبر فى ذلك، وانتقل مركز الطب عن مصر.

أما الطب لدى الاغريق فكان عصارة طب قدماء المصريين وبابل وفينيقيا وكريت والصين والهند، هذه الأقطار الشرقية القديمة العظيمة نبتت منها حضارة اليونان القديمة، فاذا كان هناك فضل لأحد فيكون فضل الشرق على الغرب.

كان الطب فى بلاد الأغريق تحت نفوذ رجال الدين الذين أنشأوا بجوار الهيا كل التى كانوا يعبدون فيها تمثال اسكولابيوس إله الشفاء ، مصحات يبنى فيها بالمرضى بواسطة الكهنة ، الذين كانوا يعالجونهم بالراحة والحمية . وكان يتنكر أحد الكهنة فى زى الإله اسكولابيوس ويزور المرضى مساء (وهم فى حالة أشبه بالغيبوبة) يمد يده السحرية لهم بالشفاء أو يترك بجوارهم الدواء وهكذا كان المرضى يعتقدون أن الإله زارهم ليلا وأمدهم بالدواء وكتب لهم الشفاء .

ثم ظهر بعد ذلك أبوقراط فى القرن الخامس ق. م. ، حرر الطب من ربقة رجال الدين ووضع له نظما جديدة ، وهو ليس أول من رفع مسئولية علاج المرضى عن الآلهة ووضعها على عاتق الإنسان فقط ، بل أول من اختط قواعد صحية بنى عليها أساس الطب الحديث ، فكان بلا نزاع أعظم طبيب ظهر فى التاريخ.

وترجع شهرة أبوقراط إلى مجموعة الكتب الطبية المنسوبة إليه . تزعم أبوقراط المدرسة الطبية الموجودة فى وقته ونجح فى ضم عدد غفير من التلاميذ الذين نشروا علمه وفنه فى العالم الاغريقى . ويمكن تلخيص فلسفة أبوقراط فى الطب ، أن المرض عارض طبيعى وما الظواهر المرضية إلا رد فعل من جانب الجسم وأن أهم مايقدمه الطبيب المريض هو معاونة قوى الجسم الدفاعية ، .

ومن أهم أجزاء المجموعة الأبوقراطية ، قسم أبوقراط ، وهو العهد الذى يقطعه الأطباء على أنفسهم عند تسلم مقاليد المهنة ، ويدلنا روح هذا القسم على الدرجة العالية التى بلغتها الأخلاق من السمو ، إذ نص هذا القسم على أمور لها أهميتها ودلالتها على الثقافة العلمية والأدبية التى بلغها ذلك العصر منذ أكثر من عشرين قرناً ، حيث حرم الإجهاض ، ثم منع الطبيب من السماح له بإبداء النصح أو إعطاء أى عقار يؤذى صحة المريض ، ثم ربط الطبيب بقدسية المهنة وسريتها التى لا يجوز إفشاؤها .

ولأبوقراط كتب عديدة تبحث فى آداب المهنة وتقاليدها وواجباتها . نذكر منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ويجب على من يريد الحصول على المعرفة التامة فى العلوم الطبية أن يكون لديه الاستعداد التام لذلك ، وأن

يتحلى بمعهد طبيب وأن يتعلم منذ حداثته وأن يكون لديه الميل للعمل وكذلك وقت كاف يخصصه للدراسة » .

« إن أهم واجب للطبيب هو العمل على إزالة آلام المريض أو على الأقل تخفيفها ..... » .

« وعلى الطبيب واجب هام جدير بالاعتبار وهو أن يكون حسن المظهر والهندام وألا يكون عليلا أو ضعيفاً لأن المرضى يعتبرون أن الشخص الذى لايعنى بنفسه لا يمكنه العناية بغيره ، ويجب على الطبيب أن يتعلم أن يصمت فى الوقت المناسب ، كما يجب الاعتدال فى معيشته محافظاً على سمعته وكرامته ، ويجب عليه أن يحسن التصرف كالرجل الشريف ، وأن يكون صبوراً رقيق الجانب ، وأن يكون هادئاً غير متهور فى عمله ، ساكن الجنان غير حاد المزاج أو عبوساً ، كما يجب ألا يكون كثير المرح كذلك » .

« ويجب على الطبيب أن يتحلى بخصال الفيلسوف الحميدة ومنها إنكار الذات والحماس والتواضع والمظهر المحترم والجدية والحكم الهادىء وهدوء الفكر والحزم والحياة الطاهرة وعدم الثرثرة وتجنب الأشياء الضارة والإيمان والتعبد لله » . هذا قليل مما جاء فى بعض كتب آداب المهنة .

وكان أبوقراط يعتقد أن ارتفاع الحرارة دليل على مقاومة الجسم المرض، وكان يعتقد أن أهم واجبات الطبيب هو أن يساعد الطبيعة على شفائها للمريض ، كما كان يعلق أهمية كبرى على التغذية والتمرينات البدنية والتدليك .

لا يمكن أن نقول إن أبوقراط وصل فى الطب إلى مرتبة الكمال ، إنما لا جدال فى أنه يمكننا أن نعتبره مبدأ نقطة التحول فى تاريخ الطب .

وتدهورت حضارة الأغريق شأن غيرها من الحضارات وتدهور الطب معها ، وانقسم الأطباء بعد أبوقراط إلى أحزاب وشيع ، يسعى كل منها إلى تحقيق مآربه الشخصية . وبعد أن سقطت كورنت عام ١٤٦ ق . م . ضاع نفوذ بلاد الأغريق نتيجة لتغلغل العنصر البربرى فيها فهجرها ذو الكفاءات إلى

البلدان المجاورة، فأصبح الأطباء الأغريق أول من استوطن روما من الأجانب، فأقاموا بها وباشروا صناعتهم فيها ورفعوا من شأن الطب الذى كان متأخراً فى بلاد الرومان، ولا يمكن اعتباره إلا أنه طب بدائى، خليط من السحر والدين مضافاً إليه قليل من المعلومات التجريبية.

ولم يكن لدى الرومان قوانين تنظم الإتجار فى العقاقير أو تعاقب من يخطىء فى العلاج عمداً أو من يقوم بتزوير وصية المريض. وكثر عدد الأطباء الذين باشروا صناعة الطب غير الشريفة، حتى أن بلينى المحامى المشهور فى روما (عاش فى القرن الأول بعد الميلاد) طعن فى نزاهة الأطباء بقوله المشهور «إنهم يتعلمون الطب فى أرواحنا ويقومون بإجراء تجاربهم على أجسامنا، ثم يلقون بنا إلى التهلكة، لأن الطبيب هو الإنسان الوحيد الذى لديه حصانة ملوكية تمنحه حق قتل أى إنسان آخر، وليس هذا كل شىء، لأن اللوم يقع دائماً على رأس المريض وحده فيعاب عليه مخالفته لأوامر الطبيب، حتى إذا ما توفى المريض وجب عقابه لعصيانه أمر الطبيب المعالج».

وهكذا وجد الأطباء الأغريق الذين هاجروا إلى روما مجالا لإظهار مواهبهم الطبيعية، لأن حياة الترف والانهماك بالملذات أصابت الرومانيين بكثير من الأمراض والعلل وقد نجح عدد كبير من الأطباء الأغريق فى اكتساب ثقة الرومان وبذلك صار تدعيم الطب الأغريقى فى روما.

وقد ترك لنا التاريخ أسماء كثير من الأطباء والجراحين الأغريق ممن باشروا صناعة الطب فى روما، وكان جالينوس أعظمهم.

ولد جالينوس عام ١٣٠ م فى برجاموس واستوطن روما عام ١٦٢ حيث نجح سريعاً وأصبح طبيب الساعة.

اتخذ جالينوس من أبوقراط مثالا يحتذى، ولكنه كون لنفسه شخصية مستقلة، اختار من طائفة المؤلفات العلمية ما حاز لديه قبولا وأضاف اليها، ثم جعل منها لنفسه ولغيره كتباً منزلة لا يناقش فى أمرها، وكان مخصباً فى التأليف، ولم يعترف بفضل لأحد سوى أبو قراط، رغم أنه حاد عن مبادئه القويمة البسيطة، ولكنه بفضل مجهوده العلمى ومهارته العلمية، أمكنه

أن يوسس تعاليمه المشهورة التى بقيت دستوراً للطب آجالا طويلة حتى أن مؤلفاته فى التشريح كانت المرجع الوحيد لهذا العلم حتى ظهور فيساليوس فى القرن السادس عشر . ولم يمكن لأحد حتى ذلك الوقت أن يطعن فى صحة طبه الحاكم المطلق ، حيث كانت مؤلفاته وفلسفته وطرق علاجه وآراؤه هى المهيمنة دون نقاش فى عالم الطب .

كانت تعاليم جالينوس تنص على أن الطبيعة تعمل بحكمة ولا تخطىء ، ومن ثم فأعضاء الجسم المختلفة قد شكلتها الطبيعة بطريقة تتناسب مع عملها وأن لكل عضو فائدته وأن لوجوده ضرورة خاصة ، فأصبحت بذلك الصلة بين المسبب والنتيجة على أتم وفاق ، وهذا مما يبرهن على وجود الله .

اعتبر جالينوس أن الروح أساس الحياة ، واعتبر أن الجسم أداة الروح وقد لاقت تعاليمه هوى فى نفوس رجال الدين لأنها كانت تتمشى مع العقائد المسيحية ، فلقى نفوذه تعضيداً تاماً وبقيت تعاليمه دون أن تمس ، كما أن إيمانه بالله جلب له احترام المسلمين فيما بعد مع اقتباس تعاليمه .

وقد نالت مؤلفات جالينوس جميعها إعجاب العالم وتحولت نظرياته وطرقه فى العلاج إلى قواعد ونواميس ، فأصبحت هذه مع الإكثار من تعاطى العقاقير دستوراً للطب حتى وقتنا هذا .

وبموت جالينوس وغيره من نوابغ الأطباء الأغريق خبى آخر شعاع مضىء فى عالم الطب ، ثم تدهور الطب حتى أصبح معظم الأطباء جهلة لا يبغون من صناعتهم سوى ابتزاز المال وأصبحوا تجاراً للمراهم واللبخ وجرعات الحب والقتل ، وانتهى بسقوط الامبراطورية الرومانية فى أيدى البربر فى القرن الخامس الميلادى عهد الطب الرشيد فى أوربا .

ولم تساعد المسيحية فى ذلك الوقت الروح العلمية الصحيحة حيث اكتفى بتعاليم الكتاب المقدس وتطبيقها دون العمل على البحث والاستقراء ، وكان رجال الدين يعتبرون الأمراض عقاباً لشرور الإنسان ، فلم يسعوا إلى الخلاص منها جدياً ، ولذلك عاشت أوربا فى ظلام دامس لقرون عديدة ، حتى جاء

الإسلام وانتشر سريعاً ، وكان الخلفاء يعملون على تشجيع العلوم والمعارف فظهرت بذلك حضارة جديدة فى كل البلدان الإسلامية ، ورفع المسلمون وحدهم شعلة الثقافة والعلم فى العصور المظلمة .

نصيب العرب فى تقدم الحضارة

لم تستطع مصر أن تحمل شعلة الثقافة بالرغم عن نفوذ مدرسة الإسكندرية القديمة التى بلغت شأناً عالياً فى العلوم فى عصر البطالسة وفى القرون القليلة التى تلت دخول المسيحية فى مصر ، ويرجع السبب فى ذلك الى تعلقها بالدين الجديد وتمسكها فى نفس الوقت بالصوفية وعلوم السحر والتنجيم ، ولكن بينما فشلت مدرسة الإسكندرية القديمة نجحت مدرسة أخرى قوامها فئة النساطرة التى باشرت نشاطها الطبي فى سورية ثم فى العراق حتى انتهى بها المطاف الى جند يسابور فى العجم ، فقد نقلت هذه الجماعة التراث الأغريقى إلى اللغة السريانية التى ترجمت بدورها إلى العربية .

ولقد شهدت الدولة الإسلامية الجديدة فى مطلع الخلافة العباسية ، عصر قوتها ورفاهيتها وإقبالها وازدهارها ، حيث أخرجت حضارة جديدة وفناً جديداً رائعاً اتسم بطابع خاص واتخذ لنفسه شخصية مستقلة طغت على غيره من الفنون الأخرى ، عشقه الأوربيون وظهر بسببه المستشرقون ، حتى أن دراسة الفنون الإسلامية كانت احتكاراً لهم .

ظهرت حيوية هذا الفن الجديد ، وأثبتت قدرته على الإبتكار فى جميع أشكاله ، فيتجلى الفن الإسلامى فى العمارة والتصوير والخط والتذهيب والنحت والحفر على الخشب والرخام والعاج ، وصنع وتشكيل التحف المعدنية ، والأسلحة والدروع ، وصياغة الذهب والتفنن فى صناعة الخزف وعمل الزجاج والبللور والنسيج والأقمشة ذات الزخارف المنسوجة بالألوان والمطرزة بالحرير والأبسطة والسجاجيد ذات الوبر . وابتكر رجال الفن العرب طرقاً جديدة فى الصناعة وأساليب جديدة فى الزخارف ، وأنواع لم تكن معروفة من قبل ، فقد كان لاجتناب تصوير المخلوقات الحية تأثير عميق فى طبيعة الفنون الإسلامية

جعلت العرب ينصرفون إلى إتقان أنواع أخرى من الزخرفة بعيدة عن الطبيعة الحية حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى ابتدعوها طابعاً مميزاً لفنونهم ، وأصبح يطلق عليه الغربيون كلمة « أرابيسك Arapesque » .

واستخدموا الخيوط الذهبية فى المنسوجات وحازت الأقمشة العربية شهرة عالمية ، فأقبلت أوربا فى العصور الوسطى عليها إقبالا يتجلى فى أسماء الأقمشة العربية التى ما زال بعضها مستعملا حتى اليوم ، كقماش الموسلين نسبة الى الموصل والدماسين نسبة الى دماس أو دمشق ، وكذلك ازدانت الكنائس وقصور النبلاء بالطنافس الشرقية صنع مصر وتركيا والعجم . وقد تفوق العرب فى صناعة الخزف والفخار ، حتى أصبحت هذه الصناعة بداية عهد جديد فى تاريخ فنون الخزف ، وظهرت أنواعه اللامعة ذات البريق المعدنى الخاطف ، وكان البابوات والأسر النبيلة يوصون العرب بصناعة أوانى خزفية وزجاجية خصيصة لهم ، ولم يقدر الصناع الأوربيون فى محاكاتها ، وقد بلغت العمارة الإسلامية أسمى درجات الرقى والروعة .

ومع أن الفن الإسلامى يمتاز بتنويعه إلا أنه يحتفظ بوحدة أساليبه ، حتى أن المنتجات الفنية فى مصر وسوريا وإيران متشابهة الى حد أنه أصبح من الصعب التميز بينها ، وبهذا نرى أن الفن الإسلامى وحدة قوية متماسكة تنطبع بمظاهر واحدة وتستمد روحها من إلهام واحد مهما تباينت عناصرها وتنوعت أشكالها ، فن أصيل باق ما بقيت حضارتنا الحالية .

وهناك نوع آخر من الفنون كان للعرب فيه فضل كبير على الحضارة العالمية وهو الموسيقى ، لم يعرف الغرب الانسجام الموسيقى فى العصور الوسطى حتى زمن الحروب الصليبية ، التى قوى فى وقتها الاتصال بين الأوربيين والعرب ، فابتدأ يظهر فى الموسيقى الغربية نوع من الانسجام بين الألحان ، ثم تطور تدوين النوتة الموسيقية حتى أصبح من الممكن تسجيل الأصوات المتباينة والتعبير عنها ، وكان الفارابى أعظم علماء العرب الذين كتبوا فى الموسيقى ، فوضع التعاليم الصوتية ، ثم جاء ابن سينا فهذب هذا العلم وألف فيه ، وهكذا انتقلت الموسيقى إلى أوربا عن طريق العرب ، كما انتقل اليهم كثيراً من آلاتها

محتفظة بأسمائها العربية فى اللغات الأوربية نذكر منها على سبيل المثال العود (Lute) والقيثارة (Guitar) .

واقتبس الغرب عن العرب نظام الأعداد المعمول به الآن محل نظام الأعداد الرومانية ، كما عرفوا الصفر ، ثم نقلوا كتب الجبر والهندسة إلى اللاتينية ، كما ترجمت معظم كتب الخوارزمى وثابت بن قرة وابن الهيثم والبيرونى (فى الطبيعة والبصريات) إلى اللاتينية وكذلك علم الفلك ومازال هذا العلم حتى اليوم ملىء بالاصطلاحات العربية وأسماء الأبراج والكواكب والنجوم التى أخذت عن العربية دون تحريف . وترجمت كتب الفلسفة وهى التى أحدثت ثورة فكرية فى أوربا ومهدت لعصر النهضة المعروف . من هذه الكتب المترجمة ومن الاتصالات الشخصية أيام الحروب الصليبية استقى العلماء والأوربيون أمثال روجرباكون وغيره معلوماتهم .

الطب عند العرب قبل الإسلام

كان الطب لدى العرب قبل ظهور الإسلام يشبه إلى حد كبير طب الشعوب المعاصرة فى ذلك الوقت ، علاج باستعمال العقاقير البسيطة وليد التجربة ، وعلاج بواسطة الكهنة والسحرة والعرافين ، وكان العرب فى عصور الجاهلية يعتمدون إلى حد كبير على الكى والحجامة والفصد . واشتهر فى عصور الجاهلية عدد من أطبائهم منهم رجل من تيم الرباب يدعى ابن حذيم وكانوا يقولون أطب من ابن حذيم ومن أشهر أطبائهم فى ذلك العصر الحارث بن كلدة . قال القفطى عنه فى كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء « الحارث بن كلدة طبيب العرب فى وقته أصله من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك البلاد ، من أهل جند يسابور وغيرها فى الجاهلية وقبل الإسلام وجاد فى هذه الصناعة .. » ومن أقواله: من سره البقاء ولابقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء ويذكر عن الحارث بن كلدة أنه عندما استقبله كسرى انوشروان وسأله عن صناعته وأجاب بأنه طبيب عربى ، قال الملك فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها ؟ فأجاب الحارث : أيها

الملك إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ويقيم عوجها ويسوس أبدانها .

ومنهم ابن أبى رمثة التميمى وكان طبيباً عالما بصناعة الجراحة . وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ورأى خاتم النبوة على كتفه فظنه ألماً فقال لرسول الله « دعنى أعالجه فانى رفيق الصنعة فقال رسول الله أنت طبيب والرفيق الله »

وجاء فى كتب التاريخ الإسلامى عن الاعتقادات السائدة فى ذلك العصر ، منها أنهم كانوا إذا خافوا الوباء نهقوا كالحمير، وكانوا يزعمون أن دماء الملوك تشفى من الكلب والخبل وأن إدامة النظر لحجر الرحى فى دورانه يعالج حول العين ، وأن المجروح إذا شرب مات ، وكانوا يعلقون الجلاجل على الملدوغ حتى لا ينام من صوتها ، وكانوا يستعملون كعب الأرنب كتعويذة وغير ذلك .

الطب النبـــوى

ظهر فى فجر الإسلام طب جديد يدعى بالطب النبوى كان متأثرا بالعاطفة الدينية التى ظهرت حديثاً . ويشتمل هذا الطب على مجموعة من الأحاديث الشريفة خاصة بالمرضى تحتوى على وصفات لعلاج بعض الأمراض والعلل .

وقد جمع البخارى هذه الأحاديث فى صحيحه وهى تؤلف كتابين من الجزء السابع من صحيح البخارى . يبدأها البخارى فى الكتاب الثانى بحديث صلعم « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » والكتاب الأول يحوى ثمان وثلاثون حديثا والثانى يحتوى على إحدى وتسعون حديثا . وجاء فى هذه الأحاديث ذكر بعض العلل كالصداع والرمد والجزام والحمى وذات الجنب والطاعون ولسعة الحية والعقرب .وأشار صلى الله عليه وسلم بالمداواة بالعسل شراباً فى ستة مواضع كما أشار بالكى والحجامة ، ووصف لبن الإبل ، وأوصى باستعمال الحبة السوداء وغير ذلك من النباتات لأمراض أخرى . وهناك حديث « الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء » وجاء فى باب الطاعون حديث « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

وهناك كتب أخرى غير البخارى عن الطب النبوى منها كتاب الطب النبوى للذهبي وكتاب الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للحموى ، وكتاب الطب النبوى لشمس الدين محمد بن أبى بكر فنشر بحلب وبالقاهرة وقد استهل الفصل الأول من كتابه بقوله « المرض نوعان مرض القلوب ومرض الأبدان وهما مذكوران فى القرآن » على أن كثير من المؤرخين يشك فى صدق كل هذه الأحاديث ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

الطب بعد ظهور الإسلام

قام علماء العرب الأوائل فى مبدأ ظهور الإسلام بنقل التراث العلمى القديم إلى العربية ، ولم يكد يتم ترجمة العلوم المختلفة حتى بدأت حركة قوية عربية دفعت ركب الحضارة والعلم إلى الأمام فقام العرب بتصنيف العلوم وابتداع نظام التخصص فيها ثم تقدموا بها وابتكروا بعد ذلك علوما جديدة .

وقد أثبتت ترجمة التراث العلمى القديم إلى اللغة العربية أن هذه اللغة صالحة أن تكون أداة حضارية . وقد استخدمت العلوم متداولة باللغة العربية أكثر من عشرة قرون ، فهى اللغة التى اقتبس منها الغرب علومه وعليها بنى أسس حضارته الراهنة . فالذين يزعمون اليوم أن اللغة العربية تقصر عن أداء مهمتها ، يجدون أن الواقع التاريخى يناقض هذه الدعوى . وسوف يؤدى تدريس الطب باللغة العربية إلى إعادتها إلى سابق مجدها فتتبوأ مقامها العلمى الرفيع القديم .

إن معلوماتنا عن نصيب العرب فى تقدم العلوم لاتزال غير مستوفاة ، لأن ما وصل إلينا من علومهم جاءنا معظمه عن طريق الكتب المطبوعة التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية أو غيرها من اللغات الأوربية ، وكان للمستشرقين الأجانب الفضل الأكبر فى الكشف عنه ، أما المخطوطات العربية الأصلية فكثير منها لم يكشف عنه بعد ، والقليل يعلم عنه ، فيوجد فى استنبول وحدها ما يزيد على ثمانين مكتبة ملحقة بالمتاحف والجوامع بها عشرات الألوف من المخطوطات معظمها بالعربية لا يعرف عنها سوى القليل ، كما يوجد بالقاهرة ودمشق وبغداد والموصل والمغرب وإيران والهند مجموعات أخرى . إن قلة من هذه المخطوطات له فهارس وعدد ضئيل جداً قد طبع أو صار شرحه وتفسيره ،

ويوجد بمكتبة ولكوم لتاريخ الطب فى لندن حجرة محصنة ضد الحريق والماء تحوى آلاف المخطوطات فى الطب العربى لم يصدر عنها بيان حتى الآن ، هذا كله عدا المجموعات الخطية باللغة العربية الموجودة فى مكتبات بريطانيا وأمريكا والفاتيكان ، ثم أن فهرس المخطوطات العربية فى مكتبة الاسكوريال باسبانيا التى تحوى تراث الخلافة الغربية ما زال غير كامل فضلا عما ضاع منها فى الحريق الذى أصابها أخيرا .

وعلى ضوء المعلومات التى لدنيا يمكن تقسيم عصر العلوم والطب عند العرب إلى فترتين ، الأولى عصر الترجمة والتأليف وهى من القرن الثامن إلى القرن العاشر والثانية عصر التأليف أو العصر الذهبى وتمتد من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر .

عصر الترجمة والتأليف

ثم حدث فى عام ٣٢٥ م أن أسست فى مدينة انطاكية بشمال سورية مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية ، وكانت الصلات الثقافية فى العصر اليونانى بين مصر وسورية قوية ، ولما كانت مؤلفات الأغريق فى ذلك الوقت هى المرجع الوحيد للطب لجأ أساتذة مدرسة انطاكية إلى ترجمتها إلى لغتهم وهى اللغة السريانية . وفى عام ٤٢٨ م . عين أحد خريجى قسم اللاهوت بمدرسة انطاكية بطريركا على القسطنطينية ويدعى نسطور ، ثم حدث جدل وخلاف نحو تفسير بعض العقائد الدينية كان نتيجته فصل نسطور من الكنيسة المسيحية وتم ذلك بواسطة مجلس دينى عام عقد فى مدينة أفسس عام ٤٣١ م ، ثم اعترض عدد كبير من السوريين على هذا القرار وتضامنوا مع نسطور وانشقوا عن الكنيسة المسيحية ، وأصبحت هذه الجماعة المنفصلة تدعى بالنسطوريين نسبة إلى رائدها المفصول البطريرك نسطور . ثم رحلت هذه الجماعة إلى مدينة نصيبين فى سورية وإلى الرها وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، وباشروا نشاطهم العلمى فى تدريس الطب حتى أصبحت مدرسة الرها من أشهر المدارس الطبية فى أواخر القرن الخامس الميلاد . ولما تزايد اضطهاد المسيحيين الأرثوذكس لهم ، هاجروا إلى العجم حيث استقبلتهم الأسرة الساسانية بكل ترحاب ، وأسسوا فى النصف

الثانى من القرن الخامس فى مدينة جنديسابور مدرسة طبية يتبعها مستشفى للملاج.
وجنديسابور أو جندشهبور هذه مدينة تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من إيران بناها سابور أحد ملوك العجم وسميت باسمه (وقد افتتحها المسلمون عام ١٩ هـ).

وأصبحت هذه المدرسة فى أواخر القرن السادس للميلاد أعظم مركز ثقافى وواسطة الاتصال بين النسطوريين وغيرهم من العلماء والأطباء الذين هرعوا إليها من كل مكان مما كان له أثر فى تطور الثقافة الطبية الاسلامية فيما بعد . وكان الحارث بن كلدة أول طبيب عربى تعلم بها .

كانت هذه المدرسة مركزا هاماً لترجمة علوم اليونان الطبية إلى اللغة السريانية ومن أوائل الذين قاموا بترجمة المؤلفات اليونانية سرجيوس الرأس عينى ، توفى عام ٥٣٦ م ، ترجم قسم من مؤلفات جالينوس وهى موجودة بالمتحف البريطانى الآن ، ونقح حنين بن اسحق العبادى هو وزملاؤه فى دار الحكمة ببغداد ترجمة سرجيوس الأصلية بعد مرور قرنين من الزمن .

ومن الأطباء المشهورين الذين باشروا الترجمة إلى اللغة السريانية فى العصر الأموى ابن أثال طبيب معاوية بن أبى سفيان، كان من الأطباء المتميزين فى دمشق نصرانى المذهب ، اشتهر بخبرته بالأدوية المفردة والمركبة ، وهناك غيره فى ذلك العصر أبو الحكم الدمشقى وابنه الحكم بن أبى الحكم وحفيده عيسى ابن الحكم المشهور بمسيح . وكان الأخير خبيرا بالطب وهو صاحب كتاب منافع الحيوان وهو كتاب فى الطب ، ومنهم ماسرجويه السريانى الذى برع فى العلوم الطبيعية ، ترجم كذلك كتاب أهرون السكندرى فى خلافة مروان بن الحكم بإشارة عمر بن عبد العزيز ولماسرجويه مؤلفات فى تركيب الأطعمة والعقاقير .

لم يقرب الإسلام أداة الحكم البيزنطى ولا المعاهد العلمية بسوء ، فتابعت مدرسة جند يسابور نشاطها العلمى فى ظل الخلافة الأموية ، ومنها هرع إلى دمشق العلماء وخاصة الأطباء فيما بعد . وقد تبادلت مصر وسورية الأطباء وكان خالد بن يزيد يطلب من مصر علماءها ليترجموا له ، ومنهم عبد الملك بن أبجر الكنانى ، كان أستاذا للطب فى الإسكندرية ثم أسلم على يد عمر بن عبد العزيز ، ولما أفضت إليه

الخلافة صحبه إلى سورية عام ٩٠ هـ ، حيث باشر التدريس فى انطاكية وحران ومن أقواله فى الطب « دع الدواء ما احتمل بدنك الداء » كما جاء فى الحديث « سر بدائك ماحملك » . وهناك يحي بن سرابيون ، ألف كتبا عديدة أهمها كتاب الخلاصة ترجم إلى اللاتينية عام ١٤٧٩ م وقد أشار إليه الرازى فى عدة مواضع نقلها عنه وتوفى ابن سرابيون عام ٩٣٠م ، واشتهر فى سورية أيضا طبيبان مؤلفان ومترجمان وهما موريانوس واسطفانوس ، وقد تلقى أبو خالد يزيد بن معاوية الطب عن الأول . ومنهم ثياذوق الطبيب وقد اختص بخدمة الحجاج بن يوسف وصف للحجاج هذه النصيحة « لاتتزوج من النساء إلا شابة ، ولاتأكل من اللحم إلا فتيا ، ولاتأكله حتى ينعم طنجه ، ولاتشربن الدواء إلا من علة ، ولا تأكل عليه شيئا ، ولاتحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت فى النهار فنم ، وإذا أكلت فى الليل فتمشى ولو مائة خطوة .

ومن أطباء ذلك العصر المشهورين أحمد بن ابراهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك فى أول القرن الثانى للهجرة وله كتاب فى أصول الطب ، وابن أبى ذاخر الطبيب العالم فى النبات ١٢٥ هـ ، ثم عبد الله بن المقفع معرب كتاب كليلة ودمنة والذى ألف كتابا فى الأمراض .

وقد اشتهرت فى أواخر عهد الأمويين زينب طبيبة بنى أود . قال ابن أبى أصيبعة عنها « وكانت عارفة بالأعمال الطبية خبيرة بالعلاج ومدواة آلام العين والجراحات مشهورة بين العرب » .

وقد ذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست أن أول ترجمة فى صدر الإسلام كانت فى عهد بنى أمية فقد كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان شغوفا بالكيمياء فاستخدم عدداً من فلاسفة الأغريق القاطنين بمصر وأغدق عليهم النعم ، فترجموا له الكثير من الكتب اليونانية والمصرية القديمة فى الكيمياء والطب والنجوم .

وقد عاصر هذا الأمير الكيميائى المشهور جابر بن حيان ، ولد عام ٨٣ هـ/ ٧٠٢م وتوفى عام ١٤٨ هـ/٧٦٢ م ،وله حوالى مائة مؤلف معظمها بنى على تجارب وقواعد علمية صحيحة حيث استحدث طرقا عديدة كعمليات التقطير والترسيب

والتصعيد والإذابة وغير ذلك مما كان له الفضل الأكبر فى تقدم هـــذا العلم وانتشاره على أساس صحيح فى أوربا . واستحضر كثيراً من الأملاح النقية وعرف خصائصها وفوائدها واستعمل الماء الملوكى لإذابة الذهب والفضة ، ونقل الكثير من كلمات جابر العربية الى اللغة الأوربية عن طريق اللاتينية كالتوتيا والقلوى والأثمد والأنبيق والعودل . لقد كتب عنه المؤرخون الأفرنج كثيرا وأسماه المترجم الانجليزى ريتشارد رسل ١٦٧٨ جبر الفيلسوف العربى المشهور.

وعندما زالت دولة بنى أمية وآل الأمر لبنى العباس أسس ثانى خلفائهم أبو جعفر المنصور مدينة بغداد ، وجعلها عاصمة الملك ، وكان ذلك عام ١٤٨ هـ وكانت مدينة جند يسابور فى ذلك الوقت مازالت كعبة طلاب الطب كما سبقت الإشارة ، ولم يكن التعليم فى مدرسة جند يسابور مقصوراً على المؤلفات اليونانية والسريانية وحسب، بل أضيف إلى ذلك تعاليم من فلسفة الهند وعلومها وترجمت إلى اللغة الفارسية ومنها ومن غيرها نمت علوم الطب .

وفى عام ٧٦٥ م مرض المنصور باضطراب فى معدته لم يجـــد معه علاج الأطباء فى بغداد ، فأشير عليه باستدعاء جورجى بن بختيشوع رئيس الأكاديمية الطبية النسطورية وكبير أطباء البيمارستان بجند يسابور وبهذا تم أول اتصال هذه الأسرة التى لعبت دوراً هاماً فى تطوير الطب العربى بالخلفـــاء العباسيين (بخت = عبد ، يشوع = مسيح ، بيمار = مريض ، ستان = محل)

وفى عام ٨٧٦ م فى ظل خلافة هارون الرشيد ، الذى كان يميل إلى تشجيع العلوم والآداب ، ازدهرت فى عصره حركة الترجمـــة من اللغات اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية ، أغدق الرشيد النعم على المترجين وشمل ذلك الأطباء والعلماء واختص مدرسة النسطوريين فى جنـــد يسابور بعطفه للشهرة التى احتلتها عائلة بختيشوع فى الطب وفى الترجمة ، حتى أصبح كل أفرادها أطباء للخلفاء العباسيين فيما بعد ، وموضع تقديرهم ومحل ثقتهم فانفردوا بخدمتهم مدى قرون ثلاثة .

وكان كرم الخلفاء العباسيين فى صدر الدولة وتقديرهم لرجال العلم ، وخاصة الأطباء سبباً فى رحيل علماء جند يسابور إلى بغداد ، والتفافهم حول الخلفاء

وكبار رجال الدولة وبذلك شرع فى تأسيس المـــدارس الطبية والبيمارستانات فانتقل مركز العلم من جند يسابور إلى بغداد ونشطت الحركة العلمية فيها وأنشىء بيت الحكمة ، ثم توالى إنشاء المدارس بعد ذلك فى سمرقند وأصفهان ودمشق .

بدأت هذه المدارس بجـــوار المساجد حيث أقام بها الطلبة والأساتذة ، وخصصت بهـا غرف للدراسة وأماكن للمرضى المترددين والمرضى المقيمين ، وتوافد عليها الطلبة من الأقطار العربية يدرسون بها علوم الدين والفلسفة والطب وكان شغف العرب بالرياضيات والطبيعة والكيمياء سبباً فى تقدم العلوم الطبية ، ولم يقتصر على الدراسة النظرية فقط بل جعلوا للجزء العلمى النصيب الأوفر من التعليم . وقد أنجبت عائلة بختيشوع ما لا يقل عن سبعة أجيال ،عاش آخرها فى الجزء الثـانى من القرن الحادى عشر عام ٤٥٠ هـ . ولا شك أن جدارة أول فرد من هـــذه الأسرة كان من عوامل اهتمام الخلفاء بنشر معلومات الأقدمين فى الطب .

وكان بيت الحكمة فى أيام المأمون عبارة عن بيت للترجمة أو النسخ أو الدرس جمع فيه كتب العلم فى لغاتها ومنها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية فضلا عن العربية وعلم الناس رغبته فأتوه بالكتب على اختلاف مواضيعها وأشكال خطوطها .

ومن أوائل المترجمين السوريين الذين نقلوا إلى اللغةالعربية ، يوحنا بن ماسويه ٧٧٧ — ٨٥٧ ، كان والده صيدليا فى جنديسابور ، ثم توجه يوحنا إلى بغداد حيث قـــلده الرشيد رئاسة المدرسة الطبية بها ، وعهد إليه فى ترجمة الكتب اليونانية فى الديار المصرية وفى غيرها من البلدان ، وبقى فى خدمة الخلفاء حتى أيام المتوكل ، رغب فى تشريح جسم إنسان ، ولما خاف سوء العاقبة ، اكتفى بتشريح جسم قرد ، ووضع فى ذلك كتابا ، وقد ترك مؤلفات عديدة بعضها فى الأغذية وأمراض النساء والجذام ، وكان ضيق الخلق يميل إلى الدعابة . زاره مرة قسيس الكنيسة التى ينتمى إليها وهو يشكو داء فى معدته ، فنصحه باستعمال دواء معروف ، فأجاب القس المريض بأنه استعمله ولم تتحسن حالته ، فأشار عليه باستعمال عقار آخر ، فأجابه نفس الإجابة ، وصار كل ما يشير الطبيب

باستعمال علاج يجيبه المريض بأنه تناوله ولم يشف ، فغضب ابن ماسويه ، وقال له : إن أردت أن تبرأ من مرضك فإسلم فأن الإسلام فيه شفاؤك . وقال مرة لأحد خصومه فى حضرة الخليفة « لوكان مافيك من الجهل عقلا ، ثم قسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منهن أعقل من أرسطوطاليس » .

أما عميد المترجمين فى ذلك العصر فهو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى ١٩٤ — ٢٦٤ ﻫ (٨٠٩ — ٨٧٧ م) وكان فيلسوفاً موهوباً وطبيباً بارعا واسع الاطلاع وأصبح الشخصية الطاغية فى الترجمة لمدة قرن كامل . أنابه الخليفة المتوكل لإدارة مدرسة المترجمين فى بغداد عام ٨٥٦ ، درس الطب والترجمة على ابن ماسويه ، وإليه يرجع الفضل فى ابتداع المصطلحات الطبية فى اللغة العربية عن الأصول اليونانية فى وقت لم يكن لها مرادف أو مثيل ، وقد تغلغل كثير من هذه الكلمات إلى اللغات الأوربية عندما بدأت أوربا ، فى ترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية ، لغة العلم فى ذلك الوقت .

كان حنين بن اسحق أعلم أهل زمانه باللغات اليونانية والسريانية والفارسية ، علاوة على اتقانه اللغة العربية التى تعلمها على سيبويه ، وأصبح من جملة الممتازين فيها ، نقل بناء على طلب المأمون كتب الأطباء اليونانين إلى اللغة العربية ، وأصلح ماسبق أن نقله غيره ، ويقال إن المأمون كان يجزيه ذهبا زنة المخطوطات التى نقلها . وتفضل ترجمة حنين بن اسحق عن غيره من المترجمين لدقتها وفصاحتها وبلاغتها . ويظهر شغف حنين بمؤلفات جالينوس لأنه ترجمها جميعها واليه يعزى السبب فى رفع جالينوس إلى المرتبة التى بلغها فى القرون الوسطى فى الشرق ثم فى الغرب حتى عصر النهضة المعروف بالرينيسانس وقد ترجم لأبوقراط مأثوراته فقط ، أما باقى مؤلفات أبو قراط فقد ترجمها تلاميذه وقد راجعها بنفسه وكشف مااستغلق منها وأوضح مااستشكل واحتذى حذو كتب الطب لمدرسة الإسكندرية حين وضع مؤلفه الطبى على هيئة السؤال والجواب . وقد نقل من اليونانية والسريانية الى اللغة العربية أكثر من مائتى مخطوط ومنها مؤلفات أوريباسيوس وبولس الأجينى ؛ وأعاد ترجمة مؤلف ديسقوريدس فى الفارما كولوجيا وقد ترجم

هذا المؤلف الضخم إلى اللغة العربية فى أسبانيا فى الجزء الثانى من القرن العاشر ولايزال الكثير من مخطوطات حنين الأصلية محفوظ فى مكتبات استنبـــول . ويغلب على ترجمة حنين العبادى طابع الأهمية لأنها المرجع الوحيد فى الحالات التى فقدت فيها الأصول اليونانية التى ترجمت عنها .

وكان الخلفاء يكلفون المترجمين بالسفر والبحث عن المخطوطات اليونانية ويحكى العبادى عن مؤلف لجالينوس كان مفقوداً فقال « وقد بحثت عنه فى كل مكان وسافرت لأجـــله إلى سورية والعراق وفلسطين ومصر حتى وصلت الإسكندرية ، ولكنى لم أتمكن من العثور إلا على جزء يسير منه فى دمشق » .

وذكر القفطى أن الخليفة المتوكل طلب مرة من حنين أن يصنع له سما يقتل به أحد أعدائه، فقال له حنين : إنى ماتعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فهدده الخليفة بالقتل وهو رافض ثم حبسه فى أحد القلاع ، وكان فى حبسه مشتغلا بالقراءة والترجمة والنقل دون اكتراث لما هو فيه وبعد سنة قضاها فى الحبس أرسل إليه الخليفة وقال « إن هذا الفعل لم يكن إلا لإمتحانك » فقبل حنين الأرض شاكراً وقال : « ياأمير المؤمنين منعنى من ذلك شيئان : الدين والصناعة ،فالدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء ، والصناعة تمنعنى من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل فى رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان غليظة أن لايعطوا دواء قتالا فلم أر أن أخالف هذين الأمرين الشريفين ووطنت نفسى على القتل فان الله تعالى ماكان يضيع لى بذل نفسى فى طاعته » .

أما عن مؤلفاته فلم يقل عـــددها عما نقله هو وتلاميذه وبجملها عبارة عن مختصرات وتفسير لمؤلفات جالينوس وكتب يدوية لطلبة الطب ، وكتاب الأسئلة والأجوبة الذى سبقت الاشارة إليه ، وكتاب العشرة مقالات فى العين ، ويعتبر هـذا المؤلف أول كتاب ظهر فى أمراض العين وقد قام بنشره وشرحه وترجمته المستشرق ماكس مايرهوف وكان طبيبا للعيون بالقاهرة .

وقد بقيت ترجمة كتب التشريح لجالينوس بينما فقدت الأصول اليونانية التى ترجمت عنها وكانت مرجعا للطب لأكثر من عشرة قرون .

وقال ليكلير المؤرخ الفرنسي عنه « إن حنين من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقا وربما كان أقوى شخصية أنجبها القرن الثالث للهجرة » .

ومن المترجمين لمدرسة حنين بن اسحق ابنه اسحق وكذلك ابن شقيقته حبيش حوالى ٩١٠ ومن المترجمين الطبيب المشهور والعالم الفلكي المتضلع في الرياضيات ثابت بن قره ٨٢٥ - ٩٠١ وهو من حاران في العراق وبلغت مؤلفاته ثلاثة وعشرين خمس منها في الطب والباقي في الحساب والهندسة والفلك هذا عدا ماترجمه من كتب الأوائل في المنطق والرياضيات والطب .

وقد نشر له أخيرا في القاهرة كتاب مقسم الى احدى وثلاثون جزءاً ، بحث فيه في علم الصحة والأمراض المستعصية والخفية والأمراض العادية كأمراض الجلد مثلا والجزء الأكبر من الكتاب خاص بأمراض الجسم فتبدأ بالرأس فالصدر والمعدة والأمعاء ثم منتهيا بالأطراف . وهناك بحث في الأمراض المعدية ومنها الجدري والحصبة ثم السموم ، وبعد ذلك يبحث في المناخ والأطعمة والتغذية وأخيرا في مسائل الجنس . ومن أقواله «ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم ، وقال : « راحة الجسم في قلة الطعام ، وراحة اللسان في قلة الكلام ، وراحة القلب في قلة الاهتمام ، وراحة النفس في قلة الآثام » .

وهناك غيره ابناه ابراهيم وسنان وحفيداه ثابت وابراهيم وكانوا نقلة جيدين ينقلون من السريانية الى العربية . وبلغ ابراهيم بن ثابت رتبة أبيه في الفضل وكان من أحذق الأطباء عالج مرة أحد الشعراء ولما شفي عمل فيه هذه الأبيات :

هل للعليل سوى ابن قرة شافي	بعد الإله وهل له من كافي
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي	أودى وأوضح رسم طب عافي
فكأنه عيسى بن مريم ناطقا	يهب الحياة بأيسر الأوصاف
مثلت له قارورتي فرأى بها	ما أكتن بين جوانحي وشغافي
يبدو له الداء الخفي كما بدا	للعين رمزاً في الغدير الصافي

ومن المترجمين قسطا بن لوقا البعلبكي ، نقل كتباً كثيرة عن اليونانية الى العربية وقد كان معاصراً ليعقوب بن إسحق الكندي فيلسوف العرب .

وقد جاء فى كتاب «مقدمة تاريخ الطب العربى» للدكتور التيجانى الماحى : «وصف المتنبى لحمى أصيب بها فى مصر ويظن أنها نوع من الملاريا الخبيثة فلم يفته ذكر الرعاش وشدة ارتفاع الحرارة ودوريتها المنتظمة كل ليلة والعرق والهذيان قال المتنبى :—

عليل الجسم ممتنع القيام ... شديد السكر من غير مدام
وزائرتى كأن بها حياء ... فليست تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتنى غسلتنى ... كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى ... مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر ... إذا ألقاك فى الكرب العظام

وفى العلوم غير الطبية فقد ترجمت معظم مؤلفات أرسطوطاليس الى اللغتين السريانية والعربية بواسطة مترجمين مجهولين كما ترجمت كتب أخرى كثيرة فى الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان .

وفى أواخر عهد الترجمة كان الفلاسفة العرب قد تمكنوا من علوم الأغريق فضلا عن اطلاعهم على جانب وفير من ثقافة فارس والهند وبهذا أصبحوا قادرين على شق طريقهم فى ميادين التأليف والابتكار .

أما عن مؤلفات ذلك العصر فيعتبر الكندى العالم الأول فيها ، إذ يعزى إلى هذا الفيلسوف العربى النابغة أكثر من مائتى وخمسون مؤلفاً وله ثمانون مؤلفاً فى الموسيقى وقد عفت بسكل أسف معظم مؤلفاته ، وقد كان لمؤلفه فى البصريات والذى حفظ فى ترجمة لاتينية أثر عظيم على علماء أوربا فى عصر النهضة .

وكان الأصمعى ٧٤٠ - ٨٢٨ من أوائل من خاضوا فى ميدان التاريخ الطبيعى فكتب عن الحصان والجمل والحيوانات الشرسة والنباتات والأشجار والنخيل كما كتب كثيرون غيره فى هذه المواضيع .

وكان شغف الخلفاء باقتناء الأحجار الكريمة التي كانت ترد اليهم من الهند وتركستان وشواطىء أفريقيا سببا لتأليف كثير من الكتب والمراجع فى المعادن وفى الأحجار الكريمة . وقد أثارت هذه المؤلفات فضول الغرب فيمابعد فسارع الى ترجمتها ، ولا يزال بعض هذه الاحجار يحمل اسمائها الشرقية الأصلية كالبيزور (فارسية ، أصلها . بادزهر بمعنى حامى من السموم) . وترجع كلمة بنزهير المعروفة لدينا إلى الاسم الفارسى بادزهر نظراً للاعتقاد بأن ليمون البنزهير يقى الجسم من سمومه العديدة .

وكتب كثيرون عن السموم وعن طرق علاجها وكذلك عن العقاقير الطبية والفارموكولوجيا ودخل الورق من الصين إلى العالم الاسلامى فى القرن الثامن وفى عام ٧٩٤ صنع الورق لأول مرة فى بغداد .

عصر الطب الذهبي للعرب

امتد هذا العصر من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر وفيه ظهرت بشائر عهد جديد حيث ابتكروا الموسوعات الطبية وبحثوا فى كل فروع الطب والجراحة وسجلوا تجاربهم ومجهوداتهم العلمية وقد اشتهر أربعة من هؤلاء المؤلفين وهم على بن ربن الطبرى ومحمد بن زكريا الرازى وعلى بن عباس المجوسى والرئيس على أبو الحسن عبد الله بن سينا .

أما على بن ربن الطبرى فهو صاحب كتاب فردوس الحكمة وأحد الأطباء المشهورين كان يهوديا ثم أسلم على يد المعتصم وخدم بالطب المتوكل ومن قبله المعتصم العباسى .

وكتاب فردوس الحكمة سفر مختصر ولكنه على هيئة الموسوعات لما حواه من البحوث فى الفلسفة وعلم النفس والفلك والظواهر الجوية خلاف أبحاثه فى الطب . وهو مقسم إلى سبعة أنواع ، والأنواع تحتوى على ثلاثين مقالة ، والمقالات تحتوى على ثلثمائة وستون بابا ، ويوجد من فردوس الحكمة نسخة كاملة فى المتحف البريطانى وقد نال هذا المؤلف شهرة عظيمة فى عصره ، وقد استعان الطبرى فى تأليفه بكتب أبوقراط وأرسطوطاليس وجالينوس ويوحنا ابن ماسويه وحنين بن اسحق .

وكما ذكر أن الكتاب يحتوى على سبعة أنواع فالنوع الاول يحوى مواضيع فلسفية والنوع الثانى يحتوى على مقالات فى الحمل وتكوين الجنين وفى وظائف وتركيب بعض الأعضاء المختلفة وكتابات فى علم النفس وعن الحواس والأمزجة وعن بعض العلل العصبية كالكزاز والخفقان والكابوس وعن الاصابة بالعين وغيرها . والنوع الثالث خاص بالغذاء والتغذية . النوع الرابع يختص بأبحاث فى الأمراض العامة ومقالات فى الفصد والنبض وفحص البول . النوع الخامس فى الطعوم والروائح . النوع السادس عن الصيدلة والسموم . النوع السابع فى الطقس والماء وفصول السنة المختلفة وعلاقتها بالصحة وفى الفلك ووصف الكون ومقالات فى الطب الهندى .

ويعتبر براون المستشرق البريطانى أن النوع الرابع الذى يختص بالأمراض العامة هو أنفس ما فى الكتاب ويتكون من اثنى عشرة مقالة .

فالمقالة الأولى وهى خاصة بدراسة الباثولوجيا العمومية وفيها أبواب فى أعراض وعلامات الأمراض الباطنية وشرح لمبادىء العلاج .

المقالة الثانية وهى فى أمراض واصابات الرأس والدماغ وفى الصرع وأنواع الصداع المختلفة والدوار والغيثيان والكابوس الليلى والطنين والدوى .

والثالثة : وتختص بأمراض العيون والأجفان والأذن والأنف والوجه والفم والأسنان .

والرابعة : تبحث فى الأمراض العصبية كالتشنج العضلى والكزاز والفالج والارتعاش .

والخامسة : خاصة بأمراض الحلق والصدر والحنجرة والربو وعلاجه .

والسادسة : عن أمراض المعدة والفداق .

والسابعة : فى أمراض الكبد والاستسقاء .

والثامنة : خاصة بأمراض القلب والرئتين والحويصلة المرارية والطحال واليرقان (الماء الأصفر)

والتاسعة : فى أمراض الأمعاء كالاستطلاق والسحج وأمراض المسالك البولية وأعضاء التناسل .

والعاشرة : فى الحميات بأنواعها وذات الجنب والجدرى .

والحادية عشر : فى الووكين والنقرس والجذام وداء الفيل والعقد الخنازيرية والرص والحكة والقوباء والسعفة والصدفة والطاعون والأورام والحروق .

والثانية عشر : فى الفصد والحجامة واستعمال الحمامات العلاجية وغيرها .

والكتاب كما يظهر يكاد يكون خلواً من التشريح والجراحة ماعدا أبوابا بسيطة عن الجروح والرضوض .

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، ولد فى ٢٣ أغسطس ٨٦٥ فى مدينة راى بشمال العجم وهى بجوار مدينة طهران الحديثة وتوفى فى ٢٦ اكتوبر ٩٢٥ ، ويعتبر الرازى مفخرة العصر الذهبى ، وهو الذى لم ينجب العالم فى زمن ما طبيبا فى كفاءته وقوة ملاحظته وابتكاره ونقده الدال على الذكاء والفطنة . باشر الرازى فى مبدأ أمره صناعة الكيمياء ولكنه عندما ذاعت شهرته فى أواخر أيامه وأقبل عليه طلاب العلم والمرضى من أقطار آسيا الشرقية اقتصر على صناعة الطب . درس الطب فى بغداد على على بن ربن الطبرى وباشر صناعته فى راى ثم نزح إلى بغداد وبعد وقت قصير نال شهرة عظيمة كمعلم قدير وطبيب خبير ، إنما ناله سوء على يد المنصور حيث يقال إنه أخفق فى بعض محاولاته الكيماوية ، فأمر الحاكم بضربه على رأسه بكتابه حتى يتحطم أحدهما فأصيب فى نظره من جراء ذلك فى آخر أيامه ، وعندما حاول استعادة نظره بواسطة جراحة أحجم عن اجراء العملية عندما أيقن بجهل الجراح الذى انتوى إجراءها لمبادىء علم تشريح العين .

لم تقتصر شهرة الرازى على معرفته الوثيقة بالجدرى والحصبة وغيرها من الحميات ذات النفاط (الطفح الجلدى) بل استعمل كذلك الخيوط الحيوانية فى خياطة الجروح ، كما أدخل الكثير من العقاقير الحديثة فى العلاج ومنها مرهم الزئبق ويقال إنه أول من أثبت التغيرات العظمية فى مرض نخر العظام وأشار بأن الورم الناشىء من مرض الغرتيت (دودة تصيب الجسم وتسكن فيه) سببه طفيلى ، كما وصف فى مقال له عن التشريح العصب الحنجرى الراجع .

توفى الرازى وهو فى حالة عوز ولكنه خلف ثروة علمية ثمينة إذ ترك أكثر من مائتى مؤلف فى الطب والفلسفة والدين والعلوم الرياضية والفلك .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب الحاوى وكتاب الجامع والمدخل والكافى والملوكى والفاخر والمنصورى وقد ترجمت جميعها إلى اللاتينية .

ويعتبر كتاب الحاوى أى الكامل من أهم ما كتب فى الطب ، يبدأ الرازى فيه وصف كل مرض على حده كما ذكر فى كتب طب الأغريق والسريان والعرب الأقدمين والعجم والهند ، ثم يذكر مشاهداته ويدون خبرته ومعلوماته وأخيراً يكون الرأى النهائى للموضوع الذى تناوله . وقد أجمع المؤرخون على أن كتاب الحاوى تم إنجازه على يد تلاميذه بعد وفاته ، ولم يبق من هذه الموسوعة الطبية التى زادت على عشرين مجلداً سوى عشرة مجلدات مبعثرة بين المكاتب المشهورة فى العالم .

وترجم الحاوى إلى اللغة اللاتينية فى عهد الملك شارل الأول ملك صقلية بواسطة الطبيب اليهودى فراج بن سالم ١٢٧٩ ، وبعد ذلك كان يترجم حتى عام ١٥٤٢ إذ ظل مرجعا للطب فى أوربا .

ويلى كتاب الحاوى فى الأهمية كتابه فى الطب المنصورى . سمى كذلك لأنه قدمه إلى حاكم خوراسان المنصور بن اسحق وهو مكون من عشرة أجزاء ، تبحث فى المواضيع الطبية الهامة والجزء السابع مخصص للجراحة العامة والتاسع لعلاج الأمراض الباطنة ، وكان الجزء الأخير يطبع بمفرده مراراً ويدرس فى الجامعات الغربية حتى عصر النهضة .

ويعتبر كتاب الرازى عن الجدرى من أثمن مايعنى به المهتمون بتاريخ الطب ، لأنه كتاب قديم بنى على تجارب وخبرة شخصية وملاحظات قيمة صدرت من طبيب يعلم كيف يفحص المريض وكيف يستقرىء من مشاهداته نتائج تدل على الذكاء والفطنة ، هذا فضلا عن أنه أول بحث صحيح صدر عن الأمراض المعدية فرق فيه بين الجدرى والحصبة ، كما أسهب فى وصف العلامات والأعراض ، وبين طرق التشخيص المقارن ، وقد ذكر المؤلف فى صدر كلامه عن الإنذار ومالمراقبة عمل القلب والنبض والتنفس والإفرازات من أهمية كبرى — كما أشار إلى أن ارتفاع الحرارة تساعد على ظهور الطفح الجلدى . كما ذكر أيضا طرقا لوقاية العين

والوجه والفم مع تجنب حـــدوث الندب العميقة فى الوجه . وهكذا ألم بكل أطراف الموضوع إذ عنى بالجزء التجميلى عنايته بالعلاج الطبى .

وللرازى رسائل عديدة يعرف مدلولها من منطوقها ومنها « فى الحقيقة الراهنة أن الطبيب الماهر لايمكنه شفاء جميع الأمراض » ، « لماذا يجفل بعض المرضى من الطبيب الماهر » ، « لماذا يفضل الناس الدجالين على الأطباء » ، « لماذا ينال جهلة الأطباء والعوام والنساء نجاحا كبيراً أكثر من الأطباء » .

وله غير ذلك مؤلفات فى حصى المثانة والكلى ، كما اكتشف حديثاً فى مكتبة أحد كبار رجال الهند مؤلف قيم فى الكيمياء يبين مدى الدرجة التى بلغها الرازى من العلم فى ذلك الفن حيث ابتدع التقسيم المعروف من نباتى وحيوانى ومعدنى كما شرح الأجهزة الكيماوية والتجارب العملية بطريقة واضحة مفهومة .

ويعزى إلى الرازى الفضل فى مقاومة الرأى السائد بين الأطباء فى ذلك الوقت بأهمية البول فى تشخيص الأمراض ، حتى أنهم كانوا يكتفون بفحص البـــول لمعرفة نوع المرض ووصف العلاج دون رؤية الطبيب المريض .

وتروى هـذه القصة عن أحد كبار أطبـاء العرب « أن امرأة توجهت إلى منزله ومعها قارورة بها بول مريض تبغى الكشف عنه — كما جرت العادة — فقابلها أحد تلاميذ الأستاذ فى صحن الدار وأخبرها بعد أن شاهد العينة بأنها لمريض مسيحى أكل عدساً فى اليوم السابق لحضورها وبأنه يقطن فى حى أسماه لها فآمنت المرأة على كلامه وأخذت العلاج ونقدته الأجر وانصرفت . وحدث أن استمع الطبيب الكبير لهـذا الحديث فاستدعى تلميذه وسأله عن كيفية وصوله إلى هذه المعلومات التى لايستطيع هو أن يصل إليها ، فأجابه التلميذ : علمت أنه مسيحى من الرسوم التى تزين قطعة القماش الملفوف بها الإناء ، وخمنت أنه تناول العدس كطعام فى اليوم السابق لأن المسيحيين يصومون يوم الجمعة ويتناولون العدس كطعام أساسى فى ذلك اليوم ، أما عن الحى الذى يقطن فيه فعلمت ذلك من لون التراب العالق بحذاء المرأة .

هذا يدل على دقة الملاحظة فى الطبيب الشاب ، انما لم تجمل هذه الطريقة فى عين أستاذه ، إذ قال له « يؤسفنى أننى لن أبقيك معى لأن فن الشفاء علم رزين يضير المشتغل به استعمال الطرق المعوجة » .

ومن مأثور أقوال الرازى « يجب على الطبيب أن يواسى ويشجع المريض حتى ولو كان مشرفا على الموت لأن قوة الإنسان مستمدة من روحه المعنوية » . « إذا ماعالجت مريضاً فابدأ بتقوية حيويته وحالته العقلية لأنك إن فعلت ذلك سهل عليك الباقى » . « يصعب فى الطب كثيرا الوصول إلى الحقيقة . وفن الطب كما تجده فى الكتب أقل شأنا عن الخبرة العملية التى يحصل عليها طبيب مفكر ماهر » . « أن المريض الذى يستشير عدداً كبيراً من الأطباء ينتهى به الأمر إلى بلبلة أفكاره وصعوبة شفائه » ونصح فى علاج مرض السل بالاكثار من شرب اللبن مع العسل .

وهكذا نرى أول طبيب إسلامى وقد تشبع بروح وتعاليم أبوقراط حارب الجهل ونبذ الدجل الذى كان مسيطراً على العالم فى وقته .

على بن عباس المجوسى توفى عام ٩٩٤ ويعتبر من كبار المؤلفين ولد فى اهواز بالعجم بالقرب من جندشاهبور ونشأ هناك وأهم مؤلفاته « الكتاب الملكى » المعروف بكامل الصناعة وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة فى مجلدين عام ١٨٧٧ ، وترجم إلى اللغة اللاتينية آخر مرة عام ١٥٢٣ بمدينة ليون ، كما أن قسطنطين الافريقى قام بترجمته بين عامى ١٠٧٠ — ١٠٨٠ » .

ويتألف كتاب كامل الصناعة من جزئين . الجزء الأول يشتمل على عشر مقالات : المقالة الأولى عن الأمزجة والطبائع والاخلاط . والمقالتان الثانية والثالثة فى التشريح والمقالة الرابعة فى الهواء والرياضة والحمام والأغذية والمقالات الست الباقية فى أسباب الأمراض وأعراضها وعلاقتها . أما الجزء الثانى فيتألف من عشر مقالات أيضا وهى مقصورة على المداواة وطرق العلاج والمقالة الأخيرة تشتمل على ثلاثين باباً فى الصيدلة .

استهل المؤلف الكتاب بمقدمة ظهرت فيها براعته عند نقده من سبقه من المؤلفين الاغريق والعرب . وقد جعل بعض المؤرخين لهذا الكتاب أهمية كبرى نظراً لأن على بن العباس أماط اللثام عن الدورة الدموية الشعرية حين قال إن هناك مسام بين الأوعية النابضة (بين الشرايين والأوردة) كما أن به شرح

واف لداء ذات الجنب ، والكتاب يمتاز بلغته السلسة وحسن إنشائه وتعابيره الدقيقة .

أما فخر الأطباء العرب ومعجزة الشرق بلا جدال فهو ابن سينا أبو على الحسين عبد الله ابن سينا . ولد ابن سينا عام ٩٨٠ فى مدينة صغيرة بجوار بخارى فى العجم وانتقل والداه إلى بخارى وفيها تلقى العلم ، وكان يحفظ القرآن وعمره عشر سنوات . وتفرغ ست سنوات لدراسة الشريعة والفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق وكل ما تهيأ له ، ثم عكف بعد ذلك على دراسة الطب ، وكانت له فيه ذاكرة قوية ومعلومات غزيرة . وما وافى السادسة عشرة من عمره حتى كان قد لخص كتابا معقداً لأرسطوطاليس عن الطبيعيات ، وفى السابعة عشرة استطاع أن يشفى الامير نوح بن منصور أحد حكام تلك المنطقة ، فأصبح من المقربين إليه واستعان بمكتبة الأمير ليرتوى من منهل العلم ، ثم جال جولة واسعة فى تلك البلاد واستقر زمنا فى البلاد الواقعة على ساحل قزوين يعلم الناس ويقرأ ويطلع ويجادل ويترجم ويكتب ويجتهد فى التغيير وفى الاستنباط ، ثم انتقل إلى همذان وهى إحدى مدن فارس الكبيرة وتقع الآن فى طريق طهران وعبدان وبها قبره حيث توفى عام ١٠٣٧ . وكان شمس الدولة حاكم تلك المنطقة ، فمال إلى ابن سينا واعجب بعلمه وغزارة معارفه وتنوعها وجعله وزيرا ، ولكن رجال الجيش أحسوا بغيرة شديدة منه فتآمروا عليه وحثوا شمس الدولة على قتله ، ومال هذا إلى رأيهم غير أن ابن سينا أحس بالمؤامرة فاختفى ، ولكن الامير أصيب بمرض خطير فأمر بالبحث عنه وتأمينه على حياته ووعده بمكافأة جزيلة ، حتى إذا ما عثروا عليه رده الأمير إلى مكانته السابقة وأنعم عليه بالهدايا ، وقضى هذه الفترة من حياته فى نشاط وعمل متواصل . وكان يصرف نهاره فى خدمة الأمير وفى المساء يجتمع بطلاب العلم فى داره فيقضى أكثر الليل فى المحاضرة والتدريس وإملاء المذكرات لكتبه فإذا انتهت القراءة حضر المغنون وهيء مجلس الغناء والموسيقى والشراب .

ولما توفى شمس الدولة قبض على ابن سينا وسجن أربعة شهور ، ثم تمكن من الفرار وقصد أصفهان إلى علاء الدولة الذى أحسن لقاءه وقربه وظل مع هذا

الأمير يواصل جهـــوده العلمية ، لكن توالى المحن والأخطار ومنازعة الحساد والإجهاد والافراط بالمتعة وبالشراب أجهدت صحته وأصابته العلة فى أمعاءه حتى كان فى طريقه يوما بصحبة الأمير إلى همذان فاشتد عليه المرض وتوفى عن ٥٨ عاماً .

ويعتبر ابن سينا شخصية فذة نابغة ، بل وأعجوبة الزمان فى عقله وملكاته وماترك من أعمال ، برزت صفاته ومقدرته العلمية فى سن مبكرة ، وبلغ ذروة المجد فى عمر لم يعهد فى غيره ، وقد أخذ من الدنيا ومتعها بنصيب بين أوقات الإجهاد العلمى وفيه تفوق تفوقا منقطع النظير فى الدرس والتصنيف والابتكار . ولقد بلغت عظمته حداً ارتفع به بعض محبيه الى السماء ورويت عنه الأعاجيب والكرامات وهبط به بعض معارضيه الى الحضيض مستصغرين شأنه متهمين . إلا أن التراث العلمى الذى خلفه خلد اسمه فى سجل العبقريين ، حتى أن علماء العالم قاموا أخيرا بتمجيد ذكراه فى موطنه الأصلى بمناسبة مرور ألف عام على وفاته . وقد تنازع العرب والترك والسوفيت على أصل ابن سينا ، فيقول الروس انه ولد فى بخارى وهى جزء من الاتحاد السوفيتى ولهذا يجب أن يسند الفضل فى اكتشافه إلى روسيا وحدها ، غير أن الحقيقة هى ان ابن سينا عالم كبير تشترك فى تكوينه جميع الأقطار الإسلامية فقط ، فقد تثقف ثقافة إسلامية وهى من ثمار جهود وأبحاث البلاد الإسلامية كلها .

أما عن مؤلفاته فهى تزيد على المائة فى جميع علوم زمانه من فلسفة وحكمة وفقه ورياضيات وتصوف وأدب وشعر وطب ، كتبت جميعها باللغة العربية ماعدا كتاب عن النبض فإنه كتب بالفارسية ، ويعدد بروكلمان ٦٨ كتابا له موجودة فى العالم الآن ، الا أن العدد الكبير منها لم يزل مخطوطا فى المكتبات الأوربية والشرقية .

أما مؤلفاته الطبية فنصفها تقريبا (ثمانية منها) تبحث فى أمور مثل علامات نهاية الأمراض ، تعاليم صحية ، علاجات مجربة ، بعض مذكرات فى تكوين الجسم لم ينشر منها إلا القليل ، وخلف ابن سينا آثاراً فى الشعر منها قصيدته الفلسفية المشهورة ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ومن شعره أيضاً أرجوزة ابن سينا وتوجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية وله غيرها أرجوزة فى الطب عدد أبياتها ألف وتوجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية قال فيها :

وهذه أرجوزة قد اكتمل فيها جميع الطب من قول وعمل

وها أنا مبتدىء بنظمى منثور وماحفظته من علم

وأهم مؤلفاته فى الطب هو كتاب « القانون » وله طبعات عديدة ويليه كتاب الأدوية القلبية ولم ينشر بعد .

وله فى بعض كتبه عن المرأة قوله : وخير النساء العاقلة الدينة الحية ، الفطنة الودود القصيرة اللسان، المطاوعة العنان ، الناصحة الوقور فى غيبتها الخفيفة فى خدمتها لزوجها ، تحسن تدبرها وتكثر قليلها بتقديرها وتخفف أحزان الزوج بجميل أخلاقها وتعلى همومه بلطيف مداواتها ، ويقول فى موضع آخر « ويجب أن يتصل شغل المرأة بسياسة أولادها وتدبير خدمها وتفقد ما تضمه جدرانها من أعمال فان المرأة اذا كانت ساقطة خالية البال لم يكن لها هم الا التصدى للرجل بزينتها والتبرج بهيئتها ، أو لم يكن لها تفكير إلا فى استزادة ذلك فيدعو الأمر إلى استصغار كرامة الرجل واستقصار زمن زيارته لبيته .

أما كتابه المشهور فى الطب فهو « القانون » وهو تراث على نفيس أصبح للشرق والغرب قانونا ودستورا لدراسة الطب ، دل على مهارة وغزارة علم مؤلفه ، وترجم هذا المؤلف الى اللغة اللاتينية لأول مرة فى طليطلة بواسطة جيرار من كريمونا (حوالى ١١٧٠) ونشرت له طبعات تناهز الثلاثين فى غرب أوربا أولها عام ١٤٧٢ وآخرها عام ١٦٦٣ ، وظهرت له طبعة عربية فى روما عام ١٥٩٣ ، وفى بولاق مصر عام ١٢٩٤ هـ ، كما طبعت له عدة شروح . وأصبح القانون مرجع الدراسة الطبية فى أوربا وظل يدرس فى جامعتى مونبليه ولوفان حتى عام ١٥٦٠ .

ويقول عنه المؤرخ نيوبرج « كانوا يعتبرونه كوحى معصوم ومما زاد تقديرهم له ، تنسيقه المنطقى الذى لا يعاب ومقدماته التى كانت تبدو لأهل تلك العصور قضايا مسلمة ومقررات بديهية » وظل القانون أوفى مرجع للطب حتى قبيل القرن التاسع عشر .

جمع هذا المؤلف الضخم كل تعاليم أبوقراط وجالينوس الطبية ممتزجة بفلسفة ارسطوطاليس فى علم الحياة ، ثم نسق هذه التعاليم بترتيب حيث ابتدع طريقة التبويب والتصنيف وتقسيم الكتاب الى أجزاء ، اتبعه الغربيون عند تأليفهم الكتب فيما بعد وكما هو الحال فى كتب الطب اليوم . بنى ابن سينا قواعده فى الطب على نظرية الاخلاط والامزجة مثل أبوقراط . وكان ابن سينا مسيطراً فى فنه وعلمه ومشرعا مستبداً فى المسائل الطبية كجالينوس لا يقبل الجدل والمناقشة (عن حق) كما يستدل من عنوان مؤلفه الطبى « القانون » انما يشفع له فى ذلك وصفه السلس للعلامات المرضية والسريرية ، وتدقيقه فى طرق العلاج المبنية على المنطق دون إسراف أو مبالغة فضلا عن فصاحة الأسلوب الذى استعمله .

وكتاب القانون يحوى مليون كلمة وهو عبارة عن خمسة كتب كبيرة وهذه مقسمة إلى أبواب سماها « فنونا » والفن منها مقسم إلى مقالات يطلق عليها « تعاليم » والتعاليم مقسمة الى « فصول » .

فالكتاب الأول يبحث فى الأمور الكلية فى علم الطب ، والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة ، والكتاب الثالث فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضواً عضواً من الرأس الى القدم ، ظاهرها وباطنها ، والكتاب الرابع فى الأمراض الجزئية التى اذا وقعت تختص بعضو وفى الزينة والكتاب الخامس فى تركيب الأدوية وهو الاقرباذين .

فالكتاب الأول يبحث فى تعريف الطب وأغراضه وأبحاث العناصر الاربعة والأمزجة والأخلاط والتشريح أبحاث فى وظائف الأعضاء وعلم النفس . والفن الثانى من الكتاب الأول يبحث فى تعريف الأمراض وأسبابها وأنواعها ومسبباتها والنبض وفحص البول والبراز والفن الثالث من الكتاب الأول يبحث فى تدبير المولود وعن الرضاعة وأمراض الصبيان وعلاجهم ، وعن الرياضة والحمام وتدبير الغذاء وعن أمراض الشيخوخة والأمزجة وإصلاحها وتدبير المسافرين والفن الرابع يبحث فى العلاج .

أما الكتاب الثانى من القانون فخاص بعلم الصيدلة ويحتوى على كثير من العقاقير

التى لم تكن معروفة عند الأغريق ،وخصص الكتاب الثالث للأمراض الباطنية والباثولوجيا ، ذكر أعراض كل مرض ووصفها وصفا دقيقا ثم ذكر الأسباب والعلاج وناقش كل ما كتب عنه من قبل مع وصف تشريحى للجزء المريض . ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات المختلفة وعلاجها وبه وصف للأمراض الوافدة كالجدرى والحصبة والفن الخامس من الكتاب الرابع يبحث فى الجراحة وقد أجاد فى كتابته عن الخلع والكسور ، والفن السادس فى السموم والفن السابع فى الأدوية المستعملة للزينة .

أما الكتاب الخامس والأخير من القانون فخصص للطرق المستعملة فى فن وتركيب العقاقير والمادة الطبية فكان أقرباذنيا كاملا .

وابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية وأنه أول من حاول التفرقة بين أنواع اليرقان ، كما يبدو من كتاباته أنه سبق غيره إلى معرفة بعض الأمراض التى تنتقل بواسطة مياه الشرب، وأنه عزاها إلى حيوانات دقيقة لاترى بالعين يتعاطاها الإنسان فى الماء دون أن يحس بها . وله وصف اكلينيكى دقيق فى بعض حالات الجلد والجهاز البولى التناسلى والجهاز العصبى .

وترجع نظرية ابن سينا فى المرض فى أساسها لتعاليم الأغريق من أن العناصر أربعة ـ نار وماء وتراب وهواء ، وطبائعها أربعة حارة جافة ، وبارد رطب ، وبارد جاف ، وحار رطب (على التوالى) ويقابل هذه العناصر والصفات فى الإنسان أخلاط أربعة ، وهى الدم والافراز الصفراوى والبلغم وافراز الطحال (السوداء) والاخلاط هى أجسام سيالة يستحيل إليها الغذاء ، فالدم له خصائص الهواء ، حار رطب ، والصفراء لها خواص النار ، حارة جافة . والبلغم له صفات الماء ، بارد رطب ، والطحال له خاصية التراب ، بارد جاف . وتذهب النظرية إلى أن الانسان لايكون فى حالة الصحة إلا بتعادل هذه الاخلاط تعادلا تاماً بحيث يكسر كل منها صورة الآخر بغير غلبة تامة . وأن المرض فى نظره اضطراب فى نسبة تكوين هذه الأمزجة فى الجسم ، وهذا أقرب مايكون لنظرية اضطراب الغدد اللاقناوية التى يعترف بها الطب حالياً .

ومع امتزاج طب القرون الوسطى بالكهانة والسحر والتعاويذ لم يستسلم ابن سينا لشيء من ذلك ، ولو أنه لم ينكر تأثير الأرواح العلوية أو السفلية فى الجسم الحى ، لكنه قرر أن الطبيب لايعرف الأمراض إلا من حيث أنها عوارض جسدية ، وحالة من أحوال المزاج .

وجاء التشريح فى كتبه نظرى أخذه عن أرسطوطاليس وجالينوس ، وقد امتاز عن سابقيه مخالفا تعاليمهم ومصححاً رأيهم فى أن مركز البصر ليس فى العدسة البلورية وانما مكانه العصب البصرى . وذكر عن مرض شلل الوجه فميز نوعين أحدهما يرجع إلى سبب مركزى والثانى موضعى سببه فى العصب الذى يغذى عضلات الوجه وهو الغالب من النوعين .

ودرس ابن سينا الكبد دراسة قيمة فقال : بإمكان معرفه حالتها عند الجس لتمييز الصلابة أو التضخم أو وجود ورم بها (كما نفعل نحن اليوم) .

هذه بعض الأمثلة ذكرتها للقارىء غير الطبيب تصور لنا مبلغ ما وصله ابن سينا فى الطب . أخذ طب السابقين وبصائب نظره ، وسعة مداركه وقوة ملاحظته عدل وهذب وابتدع ، وأقام منه قانونه فى الطب ، موسوعة ممتازة ، غطت شهرتها على كل مؤلف سابق ، وظل هذا الكتاب منهل الطب قرونا عديدة ، ومرجع الأطباء فى الجامعات أجيالا .

هذه صورة متواضعة لأئمة الطب فى عصر الطب الذهبى للعرب ، ونذكر عن طبيب مصرى يهودى عاصر الرازى فى ذلك الوقت ، يدعى اسحق بن سليمان ٨٥٥ — ٩٥٥ نبغ فى طب العيون وصار الطبيب الخاص للفاطمى المهدى ٩٠٨ وقد ترجمت مؤلفاته الى اللغة اللاتينية فى القرن الحادى عشر واحتلت مؤلفاته فى « الحميات » وفى « العناصر » وفى « العقاقير والأغذية » وفى « البول » مكانا مرموقا فى عالم الطب حتى القرن السادس عشر . وله كتاب يدعى «مرشد الأطباء» به كثير من النصائح والمأثورات نقتطف منه مايلى « اذا ماحل بزميل لك ضر فلا تذكره بسوء ، فأن لكل أمرىء ساعته ، والتسكن كفاءتك وحسن خلقك رائدك الوحيد للرفعة والمجد ولاتحاول أن ترتفع باذلال الغير ، ولا تهمل زيارة الفقراء وعلاجهم ، إذ ذلك أرفع قدراً من أى عمل آخر ،

وواسى المتألم وشجعه وعالله بالشفاء حتى ولو كنت متأكدا من عدم حدوثه ، فلربما ساعدت بتقوية روحه المعنوية على برئه . وقال فى موضع آخر : وطالب باتعابك عند شفائه أو عند اشتداد علته لأن المريض سوف ينسى حتما بعد ابلاله من المرض ما فعلت لأجله .

ونذكر ابن الجزار الطبيب المسلم المشهور ٩٢٠ — ١٠٠٩ وهو من تونس وعاصر إسحق بن سليمان وتتلمذ عليه ، له كتاب مشهور فى الطب يدعى زاد المسافر ترجم إلى اللاتينية وبعدها إلى الاغريقية وكان هذا رفيق الأطباء فى القرون الوسطى نظراً لمعلوماته القيمة فى الأمراض الباطنية .

وهناك يعقوب بن إسحق الكندى وهو أحد فلاسفة العرب المشهورين وهو أول من حذق الفلسفة والطب من العرب فى عصر الإسلام ، وله مؤلفات عديدة منها واحد وعشرون كتابا فى الطب ومن أقواله المأثورة : ليتق الله تعالى المطبب ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض ، وكما يحب أن يقال إنه كان سبب عافية المريض وبرئه ، كذلك أن يحذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته ، وقال أيضاً : العاقل يظن أن فوق علمه علما فهو أبدا متواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه تناهى فتمقته النفوس لذلك .

وهناك امين الدولة بن التلميذ ، كان رئيس المستشفى العضدى ببغداد وله تصانيف كثيرة منها كتاب الأقربازين المشهور . توفى عام ٥٦٠ هـ .

وهناك سنان بن ثابت بن قرة توفى فى بغداد عام ٩٤٢ م ، وكان فى خدمة المقتدر بالله والقاهر وخدم أيضاً بصناعة الطب الراضى بالله . وله تصانيف جيدة فى الفلسفة وعلم الهيئة والفلك والهندسة وشهرته فى هذه العلوم تعادل شهرته فى الطب .

وكان المقتدر أول من فرض على الأطباء تأدية امتحان للحصول على إجازة تخولهم ممارسة المهنة وأناط بسنان بن ثابت أن يقوم بامتحانهم وتثبيت من يصلح منهم ومنع من لا يصلح لضعف علمه . وقد نظمت الرقابة على الأطباء والصيادلة فى أيام المقتدر وكان يقوم بها مأمورون يطلق عليهم لفظ المحتسبين (محتسب للفرد) .

وجاء فى كتاب تاريخ البيمارستانات فى الإسلام للدكتور احمد عيسى : وينبغى للمحتسب أن يأخذ على الأطباء عهد ابوقراط الذى أخذه على سائر الأطباء . . .

وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال مما يحتاج إليه فى صناعة الطب والمحتسب أن يمتحن الاطباء بما ذكره حنين فى كتابه المعروف بمهنة الطب وأما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق أعنى العشر مقالات فى العين فمن وجده فيما امتحنه عارفا بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع وعدد رطوباتها الثلاث وعدد أمراضها الثلاثة وما يتفرع من ذلك من الأمراض، وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير أذن له المحتسب بالتصدى لمداواة أعين الناس .

وأما المجبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى الا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش بول الاجينى (وهو ترجمة حنين بن إسحق) وأن يعلم عدد عظام الآدمى وهى مائتنا وثمانية وأربعون عظما وصورة كل عظم فيها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شىء او انخلع رده الى موضعه على هيئته التى كان عليها فيمتحنهم المحتسب فى جميع ذلك.

وأما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس فى الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الانسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب ليتجنب ذلك فى وقت فتح المرار وقطع البواسير ويكون معه دست المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والموربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومجرفة الاذن وورد الشلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر القاطع للدم وقد يبهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها فى الجرح ثم يخرجونها منه بحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها .

وجاء أيضاً بخصوص الصيادلة « تدليس هذا الباب كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام فرحم الله من نظر فيه وعرف استخراج غشوشه فكتبها فى حواشيه تقرباً الى الله تعالى فهى أضر على الخلق من غيرها لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة والتداوى على قدر أمزجتها فمنها ما يصلح لمرض ومزاج فاذا أضيف اليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرت بالمريض لامحالة فالواجب عليهم أن يراقبوا الله عز وجل فى ذلك فينبغى للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير ويعتبر عليهم عقاقيرهم كل أسبوع .

وهناك من مشاهير الأطباء أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى وهو من أهل طبرستان عاش فى القرن الرابع الهجرى ، كان فاضلا عالما بصناعة الطب وكان طبيبا الأمير ركن الدولة وله الكتاب المعروف بالمعالجات الإبوقراطية ووصف الطبرى فى مقدمته لكتاب المعالجات نوعين من الأطباء «الطبيب الذى ليس بفيلسوف وهو الذى يقتصر على علمه وهمته على علاج الداء فحسب مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفة ، والطبيب الذى بفيلسوف وهو من يسمو بعلمه وادراكه الى طلب الغاية ولم يقتصر من كل صناعته على أقل ما يمكن .

وهناك عيسى بن على الكحال ، قرأ على حنين بن اسحق وكان يمارس طب العيون فى مدينة بغداد ويعتبره المستشرقون أكبر طبيب للعيون أنجبته العصور الوسطى كلها ، وقد ترجم كتابه الى اللغة اللاتينية وكان يدرس فى الجامعات فى أوروبا . ويتألف كتابه «تذكرة الكحالين من ثلاث مقالات ذكر فيها كل ما كان يعلم عن تشريح العين ووصفها وعلاج أمراضها ،وقد أشار المؤلف إلى أنه قد اعتمد فى تأليف كتابه على ماقرأه فى كتب جالينوس وحنين وغيرهما من الكحالين المشهودين مع يسير مما شاهده من مشايخ زمانه فى صناعة الكحل .

ثم تذكر عن ابن جزلة وهو على يحى بن جزلة ، ولد ببغداد عام ١٠٧٤م وشب نصرانيا ولكنه أسلم على يد الوليد شيخ المعتزلة فى ذلك الأوان . وله من تأليفه كتاب تقويم الأبدان وكذلك كتاب منهاج البيان فيما يستعمله الانسان وقد صنفهما للمقتدر بأمر الله . وله أيضا رسالة فى مدح الطب . وكان ابن جزلة يدرك فضل الموسيقى فى شفاء الأمراض . فقال فى كتابه تقويم الأبدان «والموسيقى من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم وقديما وضعت هذه الصناعة لحث النفوس إلى السنن الصحيحة ثم استعملها الأطباء فى شفاء الأبدان المريضة فوقع الألحان من النفوس السقيمة موضع الأدوية من الأبدان المريضة وأفعاله فى النفوس ظاهرة من مشى الجمال عند الحداء وشرب الخيل عند الصفير ومرح الأطفال لسماع الغناء. وهو يحدث اريحية ولذة ويعين على طول الصلاة والدراسة والأطباء يستعملونه فى تخفيف الآلام على مثال مايستعمله الحمالون لتخفيف الأثقال» .

وهناك من أئمة الطب كذلك موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، ولد فى بغداد عام ١١٦٢ م ودرس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسها بدمشق وحلب ثم رحل إلى مصر والتقى هناك بموسى ابن ميمون وتمكن فى مصر من دراسة العظام دراسة دقيقة واستطاع أن يكشف عن أخطاء جالينوس التى وردت فى وصفه للهيكل البشرى فقال فى كتابه المعروف بكتاب الافادة والاعتبار « فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ماأفادنا علما لانستفيده من الكتب أما أنها سكتت عنها أو لايفى لفظها بالدلالة عليها أو يكون ماشاهدناه مخالفا لما قيل فيها والحس أقوى دليلا من السمع فإن جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فإن الحس أصدق منه » . توفى عام ٦٠٤ هـ وله مؤلفات عديدة فى الأدب وفى الطب ونذكر من أقواله « ينبغى أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا آويت الى منامك وتنظر مااكتسبت فى يومك من حسنة فتشكر الله عليها ، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقمع عنها وترتب فى نفسك ماتعمله فى غدك من الحسنات وتسأل الإعانة على ذلك » . وقال أيضاً أوصيك ألا تأخذ العلوم من الكتب فقط وعليك بالاساتذة فى كل علم تطلب اكتسابه ، ولاتظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمى ولاينقص ، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر ومباحثة الأقران والاشتغال بالعلم والتصنيف ، ومن قوله وأعلم أن للعلم نورا وضياء يشرق على المتمكن منه ويدل عليه كتاجر المسك لايخفى مكانه ولاتجهل بضاعته ، ومن نصائحه للطبيب « إياك والهذر والكلام فيما لايعنى وإياك والسكوت فى محل الحاجة وإياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبتير الكلام ، بل اجعل كلامك سرداً بسكون بحيث يستشعر منه أن وراءه أكثر منه » وقال « وإياك والغلظة فى الخطاب والجفاء فى المناظرة » .

وله مصنفات كثيرة فى الأدب والنحو والبلاغة وكتاب فى النبات وشرح لكتب أبو قراط وجالينوس ، واختصار كتاب الحيوان لأرسطوطاليس وكتاب الكفاية فى التشريح ومقالات للرد على على بن رضوان الطبيب المصرى.

وفى عصر الفاطميين والأيوبيين قوى الاتصال العلمى بين العالم الإسلامى جميعه ، فكان العلماء والأطباء يتنقلون بين العواصم الإسلامية . نذكر من هؤلاء الأطباء أبو عبدالله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ، أقام فى أول أمره فى القدس ونواحيها ، وكان عالما مطلعاً فى علم النبات والأقربازين ثم انتقل إلى مصر وأقام فيها حتى توفى بها فى أيام المعز . وعلى بن سليمان ، عاش فى أيام العزيز بالله وولده الحاكم ، وله عدة مؤلفات منها مختصر كتاب الحاوى ، باشر صناعة الطب فى القاهرة وفى حلب . وابن الهيثم الطبيب الفيلسوف والمهندس المشهور ، أصله من البصرة ، انتقل إلى مصر وأقام بها حتى آخر عمره ، وهو صاحب كتاب (المناظر) الذى يدل على أن مؤلفه اعتمد فى مباحثه على الاستقراء والتجربة والقياس على الطريقة المأخوذ بها فى البحث العلمى . وكان ابن الهيثم ٩٦٥ - ١٠٣٩ حجة فى علم البصريات وقد علم أن الأشعة الضوئية تمر من الجسم المرئى إلى العين وليس بالعكس كما كان يظن فى ذلك الوقت وتعتبر مؤلفاته ذات أهمية فى البصريات وفى العين والمرئيات . ثم نذكر ابن ابى أصيبعة وهو موفق الدين أحمد بن أبى القاسم بن أبى أصيبعة ولد فى دمشق عام ١٢٠٣ ودرس الطب بها ثم نزح إلى مصر واستزاد منه وتتلمذ لابن البيطار المالقى وفى عام ١٢٣٦ م اشتغل فى أحد بيمارستانات القاهرة وفى العام التالى انتقل إلى خدمة الأمير عز الدين فى صرخد ومات ابن أبى أصيبعة بصرخد وألف كتابه المشهور « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » عام ١٢٤٥ وهو يضم تراجم الأطباء من عهد اليونان إلى عصره ويعتبر هذا الكتاب مصدراً من المصادر الهامة فى تاريخ الطب العربى .

وهناك ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ولد ببغداد وقرأ على نصارى الكراخ وبرع فى صناعة الطب ورحل ابن بطلان من بغداد عام ٤٤٠ هـ وسار إلى الجزيرة والموصل وديار بكر وحلب واستقر أخيراً بمصر وجرت مناظرة حادة بينه وبين الطبيب المصرى المعروف ابن رضوان وحدثت بينهما مشادة خرج ابن بطلان على أثرها من مصر ، ورجع إلى انطاكية حتى توفى عام ٤٤٤ هـ وأهم مؤلفاته كتاب « تقويم الصحة » الذى ترجم إلى اللاتينية عام ١٥٣١ م ونشر فى مدينة ستراسبورج وذكرت له مؤلفات أخرى منها « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » .

أما على بن رضوان فهو الطبيب المصرى المشهور توفى بمصر عام ٤٥٣ ﻫ وكان بينه وبين ابن بطلان كما سبقت الإشارة مراسلات عجيبة ومناقشات عديدة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا أو يبتدع رأيا حتى يسارع الآخر يرد عليه ويسفه رأيه ، وكان على ابن رضوان أسمر غير جميل المظر ، قال فيه ابن بطلان

فلما تبدى للقــوابل وجــهه ... نكصن على أعقابهن من الندم

وقلن وأخفــين الكلام تسترا ... ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

ولعلى بن رضوان مؤلفات كثيرة ، وآراء فى الطب تعتبر رشيدة فى وقتنا الحالى ومن أقواله « إذا كانت للانسان صناعة ترتاض بها أعضاؤه ويمدحه بها الناس ، ويكسب بها كفايته فى بعض يومه ، فأفضــل ماينبغى له باقى يومه أن يصرفه فى طاعة ربه ، وأفضل الطاعات النظر فى الملكوت وتمجيد المالك لها سبحانه ، ومن رزق ذلك فقد رزق خــير الدنيا والآخرة . وطوبى له وحسن مآب » . ومن كلامه « إذ دعيت إلى مريض فاعطه مالا يضر إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك » . ومن مؤلفاته كتاب « دفع مضار الأبدان بأرض مصر » أرشد فيه إلى قواعد صحية حديثة كغلى الماء الملوث قبل استعماله وشربه . ومن أقواله أيضا « أعط فى كل فصل مايناسبه وأجر الناس على عادتهم ، مالم يكن هناك مانع ، وأمر بالرياضة وتلطف لكل انسان » .

وهناك من الأطباء المشهورين ابن جميع ، ولد بالفسطاط وخدم صلاح الدين وله مؤلفات عديدة ، وتروى عنه هذه القصة « كان يوماً جالسا فى دكانه بالفسطاط ، ومرت عليه جنازة ، فصاح بأهل الميت أن يقفوا وذكر لهم أن الذى يشيعونه لم يمت ، وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنونه حيا ، فدهشوا وتشاوروا فيما بينهم ثم استدعوه اليهم قائلين : أفصح لنا عن مرادك ، فقال أرجعوا به إلى البيت ودعونى أعالجه ، فرجعوا وهو معهم ، وطلب منهم أن ينزعوا عنه الأكفان ويحملوه إلى الحمام ، وهناك سكب عليه الماء الحار وباشر علاجه حتى أفاق ورجع للحياة ، فكانت هذه الواقعة مبدأ شهرته فى عالم الطب وظهرت عنه كالمعجزة ، ثم أنه سئل بعد ذلك ، من أين علمت أن ذلك الميت وهو محمول وعليه الأكفان فيـــه روح ، فقال : انى نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين ،

وأقدام الذين ماتوا تكون منبسطة ، لحدست أنه حى وكان حدسى صائبا .

وهناك غيره البيرودى ، ومهذب الدين بن النقاش ، والصاحب نجم الدين اللبودى ، ورضى الدين الرحبى ، سافر هذا إلى بغداد حيث باشر صناعة الطب بها وتوجه إلى مصر حيث أقام بها حينا ثم رجع إلى دمشق عام ٥٥٥ هـ ، نسخ كتبا كثيرة فى الطب بخطه ، وكان يتردد على البيمارستان فى دمشق لتعليم الطب ، وكان شديد العناية بنفسه ، لا يأكل إلا إذا اشتهى الطعام ، ويكره ارتقاء السلالم وكان يقول عنها انها « منشار العمر » ولم يرق سلما سوى مرة واحدة فى بحر ٢٥ عاما ولد عام ٥٤٣ وتوفى عام ٦٣١ هـ .

وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كان الطب مزدهرا فى سورية وفى أرض مصر ، وكان هناك أطباء يعملون فى مستشفيات دمشق والقاهرة ، ومنهم مهذب الدين عبد الرحيم بن على المعروف بالدخوار ، رئيس أطباء مصر وسورية ترك منزله ومكتبته وأوقف عليها ريعاً كبيراً لتأسيس مدرسة للطب .

ومن أهم تلاميذ الدخوار ، ابن النفيس وهو عـــلاء الدين بن النفيس توفى عام ١٢٨٨ ، وفد من دمشق إلى القاهرة ، وأصبح كبير الأطباء فيها ، وكتب كثيراً يعلق على أبوقراط ، وكذلك القانون لابن سينا ، فله كتاب « موجز القانون » وكتاب « شرح تقدمة المعرفة » وكتابه الموسوم « بشرح تشريح القانون » من أجل المختصرات فى التشريح وله أهمية بالغة ، لأنه ذكر أن الحاجز البطينى خال من المسام غير نضاح ، كما قال أيضا رداً على خطأ لابن سينا ، إن القلب لا يتغذى من الدم الذى تحتويه تجاويفه ، بل من الأوعيه الصغيرة المنبثة فى جوهره » . وابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يذكرها ميخائيل سرفيتوس بثلاث مائة سنة ، ومما قاله فى ذلك أن الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويتصفى وينفذ إلى الشريان الوريدى ليصل إلى التجويف الأيسر من تجويفى القلب » .

ولا ننسى كذلك الطبيب المشهور أبو نصر الفارابى كان فى بغداد ثم انتقل إلى دمشق وسافر إلى مصر ، ورجع ثانياً إلى دمشق حيث توفى بها . وهو الفيلسوف الكامل والامام الفاضل ، كان بارعا فى العلوم الرياضية وصناعة الطب ، ولو أنه لم يكن

يميل إلى مباشرتها كثيرا.. له دعاء جميل نقتطف منه « اللهم انى أسألك أن تعصمنى من الزلل ، وأن تجعل لى من الأمل ما ترضاه لى من عمل . . . اللهم ألبسنى حلل البهاء وعلوم الحكماء وخشوع الاتقياء . . . أمنحنى فيضا من العقل وهذب نفسى بأنوار الحكمة . . . أرنى الحق حقاً وألهمنى اتباعه والباطل باطلا وأحرمنى اعتقاده ، اللهم ألهمنى الهدى وثبت إيمانى بالتقوى وبغض إلى نفسى حب الدنيا، قو ذاتى على قهر الشهوات ،إنك الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وله من المؤلفات كتاب الماجسطى المشهور لبطليموس وشرح كتاب البرهان لارسطوطاليس وغير ذلك .

الطب فى الخلافة الغربيـــة

كان الطب يختال تحت كنف الخلافة الشرقية ، إلا أنه لن يقل شأنا لدى شقيقتها الخلافة الغربية حيث برز أطباء العرب فى الصناعة والتأليف عندما بلغت الحضارة الأندلسية ذروتها وخاصة فى الفترة بين ابتداء القرن العاشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلادى فأضاف المؤلفون الأندلسيون إلى ما اقتبسوه من الحركة العلمية فى بلاد المشرق خلاصة تجاربهم .

ومن أشهر أطباء الأندلس وبلاد المغرب نذكر منهم اسحاق بن عمران رحل إلى افريقيا فى أيام ابن الأغلب التميمى بالقيروان وله جملة مؤلفات منها كتاب المالنخوليا .

ثم ابن الجزار وهو أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد ، عاصر اسحاق بن سليمان وصحبه ومات بالقيروان عام ١٠٠٤ م وله مؤلفات عديدة فى الطب ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى وأهمها زاد المسافر .

وهناك ابن جلجل وهو سليمان بن حسان الطبيب الأندلسى المعروف بابن جلجل ولد بقرطبة عام ٣٣٣ ﻫ . وكان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات جيد التصرف فى صناعة الطب وكان فى أيام هشام المؤيد بالله . وكتابه المعروف بطبقات الأطباء والحكماء من المصادر الهامة فى موضوعه ، وقد نقل عنه القفطى

بن أبي أصيبعة في كتابيهما عن تاريخ الأطباء ولابن جلجل أيضا من الكتب كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ألفه عام ٢٧٢ ﻫ .

ثم ابن الوفيد وهو الوزير أبو المطرف بن عبدالرحمن اللخمي ، ولد بطليطلة عام ٣٨٧ ﻫ وكان ابن الوفيد أحد أشراف أهل الأندلس . ألف كتابا في الأدوية وله نظرية في الطب وهي أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية ، فاذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ماوصل إلى التداوي بمفردها ، فاذا أضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل اقتصر على ما يمكن منه .

ثم هناك الشريف الإدريسي وهو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسن ولد عام ٤٩٣ ﻫ بقرطبة وحل بصقلية في كنف مليكها روجر الثاني وألف له كتابا في الجغرافيا سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » واشتهر الإدريسي بكتابه المسمى « الجامع لصفات أشتات النبات » وقد أشار الإدريسي في مقدمته إلى كتب النبات المشهورة في زمانه التي استعان بها في تأليف كتابه وهي كتاب الحشائش لديسقوريوس وكتاب المفردات لاسطفان وجالينوس وكتاب الأدوية المفردة لحنين بن اسحق وكتاب الفائدة لابن سرافيون وكتاب النبات لابن جلجل وكتاب الأدوية المفردة للزهراوي الخ .

وهناك ابن البيطار (١١٩٧ — ١٢٤٨) وهو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقي ، ولد بملقه ونشأ هناك ، وكان أوحد زمانه في معرفة النباتات سافر إلى بلاد الأغريق والمغرب ، ثم استقر في القاهرة وخدم الكامل بن العادل فكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيسا للدرسة الطبية بالقاهرة وتوفي بها عام ٦٤٦ ﻫ ، وله مؤلفات قيمة منها كتاب الجامع في الأدوية المفردة . وقد ترجم هذا الخطاب بواسطة لكلريك ١٨٧٧ — ١٨٨٣ ويعتبر أهم مؤلف لدينا في ميدان علم النبات والمادة الطبية وقد وصف به ١٤٠٠ عقار ومنها على الأقل ٣٠٠ ذكرت لأول مرة ، ومنها الكافور والعنبر والسنا والجوز المقيء وجوزة الطيب الخ ، ومن أطرف ما في الكتاب أن المؤلف ذكر أسماء النباتات كما هي شائعة في أسبانيا والعجم والبلاد العربية الأخرى . وله غير ذلك كتاب المغني في الأدوية وشرح كتاب ديسقوريدس في العقاقير وغير ذلك من المصنفات القيمة .

ويعتبر أبو القاسم الزهراوى ١٠١٣ م ، أعظم من كتب فى الجراحة من أطباء العرب ، وكان طبيب البلاط فى قرطبة ، واشتهر بممارسة الجراحة ، وضمن معلوماته الهامة فى الكتاب المعروف باسم « التصريف لمن عجز عن التأليف » دل على خــــبرة عملية وعلم غزير ، والكتاب مكون من ثلاثين جزءاً أو مقالة والجزء العاشر منه يختص بالجراحة ويشمل ثلاثة فصول أو أبواب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية مراراً حتى أن الجراح الفرنسى جى ده شولياك ١٣٠٠ — ١٣٦٨ ترجم الجزء الجراحى إلى اللاتينية وجعـــله ضمن كتابه فى الجراحة . وكان فابريقوس دا كونبذنتى (الأستاذ فى جامعة بادوا) ١٥٣٣ - ١٦١٩ يعتبر أبا القاسم الزهراوى أعظم جراحى زمانه ، وكانت آخـــر طبعة للجزء الجراحى فى اكسفورد عام ١٧٧٨ . وتوجد نسخة عربية فى دار الكتب المصرية طبعت فى لاكنو بالهند عام ١٩٠٨ م .

وأبو القاسم هو أول من رفع من شأن الجـــراحة ورفعها من مستوى الصناعات اليدوية . تكلم فى مقدمة الفصل الأول من مقالة الجراحة عن أسباب تأخر الجراحة لدى العرب وعزى السبب إلى عدم الاهتمام بالتشريح والاطلاع على المراجع الأصلية لجالينوس وغيره ، وقد اختص هـذا الجزء بعملية الكى وحالات وجوبها فى الأحـوال الجراحية المختلفة وكـذلك فى الفالج والصرع وفى أحوال خلع مفصل الكتف وفى حالات النزيف حيث نصح بالضغط على الشريان بالأصبع ومن ثم بالكى .

أما الفصل الثانى فاختص بالعمليات الجراحية ، ونصح بعدم الإقدام على إجراء أية جراحة دون التأكد من ضرورتها القصوى ، وأن يكون الجراح عليما بكل خطواتها ، وألا يكون الكسب المادى هو الدافع لإجـــرائها لأن الله عليم براقب عمله . ثم وصف عمليات الفتق والحصوة والتربنة والبتر والناسور والغدة الدرقية . وله ملاحظات جديرة بخصوص الأسنان إذ أوصى باستعمال الأسنان الصناعية المصنوعـــة من عظام البقر ، وأوصى باستعمال القسطرة الفضية فى أمراض المثانة معدداً مزاياها وفضلها على القسطرة المعدنية ، الخ ثم انتهى هـذا الفصل برسم ووصف للآلات الجراحية المختلفة .

والفصل الثالث من المقالة العاشرة يبحث فى الكسور والخلع والشلل الناشىء عن كسر فقرات الظهر ، وغير ذلك مما يهم الجراح الاطلاع عليه . ويمتاز كتاب التصريف بكثرة رسومه ووفرة أشكال الآلات التى كان يستعملها أبو القاسم وأكثرها من استنباطه ويمكن اعتبار هذا الكتاب موسوعة هامة فى الطب والجراحة .

ثم نذكر عن ابن زهر (١١١٣ — ١١٦٢) وهو أبو مروان عبد الملك بن زهر ولد بأشبيلة ودرس الطب عن أبيه واشتهر كتابه المسمى بالتيسير فى المداومة والتدبير وفيه وصف التهاب التامور (غشاء القلب) المصلى والتهاب الأذن الوسطى . وشلل البلعوم كما جاء فيه وصف لعملية استخراج الحصى من الكلية وكذلك: فتح القصبة الهوائية وقد عرف التغذية عن طريق الشرج ومات بأشبيله عام ١١٦٢ م وقد ترجم كتاب التيسير إلى اللغة اللاتينية واللغة العبرية وطبع مرارا قبل نهاية القرن الثالث عشر .

ولقد أثر ابن زهر أثراً بليغاً فى الطب الأوروبى حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى وذلك بفضل ترجمة كتبه ، حين أشار بأن الجراحة لا تليق بالأطباء ، كما أن الطبيب لا يليق بأن يحضر العقاقير . ونرى أن تعاليم ابن زهر كان لها تأثير نافذ فى القرون الوسطى وعصر النهضة (الرينيسانس) إذ بدىء بفصل الجراحة عن الامراض الباطنية وتدهور حال الأولى ، ونشأت طبقة الحلاقين المعروفة فى العالم حتى القرن الماضى . وكان من الناحية العملية يرى أن التجربة خير مرشد .

وينتمى أبو مروان إلى أسرة عظيمة كنى أفرادها جميعا بابن زهرة ونبغ منهم عدد غير قليل فى الفترة بين القرن الحادى عشر وابتداء القرن الثالث عشر . وكان أبو مروان طبيبا مشهورا وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان.

وهناك من مشاهير فلاسفة الأندلس ابن رشد وهو أبو الوليد محمد بن أحمد ابن محمد بن رشد أحد فلاسفة الإسلام المشهورين . ولد بقرطبة ودرس الفلسفة والطب وألم بفلسفة أرسطوطاليس إلماما تاماً وصار من أشهر اتباعه والمدافعين عن فلسفته واشتهر بالفلسفة أكثر من الطب ، وألف فيها كتابه المشهور بكتاب « الكليات » وقد أجاد فى تأليفه وكان بينه وبين أبى مروان بن زهر مودة وصداقة . ومن مأثور أقواله « من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانا بالله » وقد خلف ضمن

مصنفاته فى الفلسفة مصنفات عديدة فى الطب .

ثم ابن خاتمة وهو أحمد بن على بن محمد أبو جعفر ابن خاتمة وقد كتب فى الوباء وأثبت حصول العدوى . وكانت رسالته فى الوباء من خير ما كتب فى موضوعها حتى أوائل القرن السادس عشر : وكان من معاصرى ابن خاتمة الطبيب الأندلسى الوزير لسان الدين بن الخطيب وكان بينهما مودة ولابن الخطيب رسالة فى الطاعون اسمها الكلام عن الطاعون المعاصر نالت شهرة عظيمة وقد أكد فيها انتقال مرض الطاعون بملامسة المريض وأوعيته وأكله وشربه وملابسه .

ومن كبار رجال الطب فى الأندلس ابن ميمون وهو أبو عمران موسى بن ميمون القرطبى ، ولد عام ١١٣٥ م فى قرطبة وكان أبوه من كبار اليهود وقادة الرأى فيهم ، درس ابن ميمون الدين على أبيه وقرأ العلوم العربية على بن رشد وعلى علماء المسلمين وقبل بلوغه سن الرابعة عشر سقطت قرطبة فى أيدى أمير الموحدين عبد المؤمن ابن على الكومى الزناتى ، فهاجرت أسرة ابن ميمون واستقرت فى جنوب الأندلس ثم نزحت إلى فاس وبعدها رحلت إلى فلسطين وبعد وصولها هناك نزح موسى بن ميمون مع أخيه إلى الفسطاط بمصر وأخذا فى الاتجار بالجواهر الكريمة . وكان موسى يواصل الدرس والتحصيل بهمة لا تعرف الملل ، واحترف موسى الطب فى مصر واشتهر اسمه ، وفى عام ١١٨٧ م اختير ابن ميمون رئيسا للطائفة اليهودية فى مصر ، ثم دخل فى خدمة السلطان صلاح الدين وما زال كذلك حتى عينه الملك الأفضل طبيبا له . ولم يشغله ذلك عن معالجة المرضى الآخرين ، كما لم يمنعه من الاستمرار فى التأليف .

وألف ابن ميمون عشرة تصانيف أهمها « فصول القرطبى » أو فصول موسى ابن ميمون وقد استخلص فيها من كتابات جالينوس ومنها المقالة الفاضلية وسماها السموم والتحرز من الأدوية القتالة وقد أبرز فيها ابن ميمون الكثير من تجاربه الخاصة وله رسالة فى الربو وأخرى فى البواسير ومن أهم رسائله « الرسالة الأفضلية » التى بعث بها إلى الملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب تلبية لأمره لأنه كان كثير الأسقام عصبى المزاج منقبض النفس وتبحث هذه الرسالة فى الحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وأثرها فى الصحة وعلاجها برياضة النفس وتقويتها بممارسة مبادىء الأخلاق الفاضلة والتمسك بآداب الدين وتدل

هذه الرسالة على أن ابن ميمون كان عالماً نفسانيا محنكا وأنه أدرك عظم الفائدة من تسخير قوى النفس فى علاج أمراض البدن ، وقد اشتهر بذلك وتوفى ابن ميمون عام ١٢٠٤ .

وهناك أبو عبد الله بن الخياط الكفيف من أهل قرطبة وكان بصيرا بالطب والفلك وعلم الهيئة وكان كفيف البصر ومات عام ٤٣٧ ﻫ .

أما عن الأطباء فى مصر فقد لجأ إليها الكثيرون من الأقطار العربية الأخرى وقد جاء ذكرهم ومنهم أسعد الدين المحلى، وجمال الدين بن أبى الحوافر نزح إلى القاهرة من دمشق أيام الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين ، وهناك أيضا رشيد الدين أبو حليقة تعلم الطب فى دمشق وباشر الصناعة فى مصر وخدم الملك الكامل وتوفى ٦٤٨ ﻫ . وغيره رشيد الدين أبو سعيد ٦٣٢ ﻫ ، أسعد الدين بن أبى الحسن أقاما فى اليمن حينا من الوقت ثم فى الديار المصرية ، وهناك أحمد القيسى ودعى بأمير أطباء مصر أيام السلطان الصالح فى القرن الثالث عشر كتب مؤلفا فى العين أسماه نتيجة التفكير فى علاج أمراض النظر قسمه إلى أربعة عشر فصلا : وقد ذكر ابن أبى أصيبعة تراجم لسبعة وخمسون طبيبا ممن اشتهروا بالصناعة فى مصر .

وكان آخر الأطباء الذين عملوا فى مصر داوود الانطاكى ١٥٩٩ م ومؤلفه المشهور « كتاب الذخيرة » أو تذكرة ابن داوود مشهورة فى الأوساط الطبية حتى القرن الماضى .

هذه لمحة خاطفة عن أجدادنا العرب فى الطب فيجب علينا أن نعمل جادين على التعرف بمآثرهم العلمية لافى الجزئيات فقط بل فى وضع أسس الطريقة العلمية الحديثة وفى توجيه التفكير نحو وجهته الصحيحة عن طريق البحث فى المكتبات العالمية عن المخطوطات الطبية العربية التى لم تستكشف بعد وابرازها إلى حى الوجود العلمى كما يجب أن نحرص على ألا يبخس للعرب قدر فى أى ناحية من النواحى .

ويجمل بنا الآن أن نذكر شيئا عما أضافه العرب لعلوم الطب المختلفة فى التشريح نرى أن الأطباء العرب لم يمارسوه كفن فى حد ذاته وهذا لا يبخس من قدرهم لأنه باستثناء مدرسة الاسكندرية القديمة ٣٠٠ ق . م لم يمارس التشريح

كعلم قبل القرن السادس عشر . وقال ابن النفيس فى مقدمته لشرح الكتاب الثالث من القانون لابن سينا الخاص بالتشريح .

« وقد صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة ومافى أخلاقنا من الرحمة فلذلك ينبغى أن نعتمد فى تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس اذ كانت كتبه أجود الكتب التى وصلت الينا فى هذا الفن . . . . . الخ » .

وكان أطباء العرب يعتمدون فى معرفتهم لتشريح الهيكل العظمى على ما كتبه جالينوس ، وكان عبد اللطيف البغدادى (كما سبقت الإشارة) أول من أرشد إلى مواطن الضعف فى وصف جالينوس ، هذا ويعتبر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الرئوية) على يد ابن النفيس أجل عمل قام به العرب فى التشريح .

لم تتقدم الجراحة فى العالم لسببين الأول لارتباطها بفن التشريح الذى كان مجهولا مدى العصور الطويلة . والسبب الثانى لاعتبار الجراحة من المهن اليدوية الحقيرة التى لا تليق بمقام الأطباء ، حتى أن قسم أبو قراط نص على العبارة التالية « وألا استعمل المبضع — ولو عن يقين — فى علاج المرضى بالحصيات ، وإنما أعالجهم بمقتضى مايراه ذو الخبرة بمثل هذا العلاج » . نفهم من هذا أنهم كانوا يستنكفون أداء الأعمال الجراحية ويعتبرونها مشينة لدى الأطباء . وقد ظل هذا الوضع سائدا حتى أخيراً هذا ويطلق الجراحون على أنفسهم فى أنجلترا حتى الآن لقب « مستر » وليس « دكتور » كما جرت العادة بنعت الأطباء بهذا اللقب . إلا أن أبا القاسم الزهراوى استهل عهداً جديداً فى الجراحة بظهور كتابه المسمى بالتصريف ، كما أن الرازى وصف بعض العمليات وكان أول من استعمل الخيوط الحيوانية لخياطة الجروح كما تستعمل الآن ، ووصف ابن زهر عملية استخراج الحصى من الكلية .

وقد ذكر الدكتور زكى على فى مضغه رسالة الطب العربى وتأثيره فى أوربا « أنهم عرفوا استعمال التخدير بالإستنشاق وكان لهذه المعرفة تأثير على جراحتهم اذ ابتدعوا ماسمى بالاسفنج المنوم الذى كان يغمر فى مواد عطرية ومنومة ثم يجفف ويحفظ ويبلل قبيل استعماله للتخدير ثم يوضع فوق الأنف والفم وقد نقل عنهم ذلك ثيودريك البولونى فى القرن الثالث عشر بأوربا » .

أما فى الكيمياء فكان للعرب القدح المعلى فهم أول من وضع أساس الكيمياء الحديثة ، واخترعوا طرق البحث الكيمائى ووضعوا عمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب واكتشفوا كثيراً من المستحضرات الكيمائية لمهمة مثل ماء الفضة والكحول وحامض الكبريتيك وكانوا يستخرجونه من الزاج بواسطة التقطير ، وماء الذهب ،كما اكتشفوا البوتاسا وملح النشادر وحجر الكى والسليمانى والراسب الأصفر والبارود والزرنيخ وغيرها ، وأشار ابن الأثير إلى أن العرب استعملوا مواد إذا طلى بها الخشب منعته من الاحتراق .

أما فى الصيدلة فهم أول من وضع الأقرباذنيات وأسس حوانيت الصيدلة ووضع مراقبتها ، وأدخلوا الكثير من المواد الكيمائية فى أدويتهم ، ومكنتهم معرفتهم لعلم النبات من استخدام الراوند والكافور والسلامكى والجوز المقيء وغيرها وأدخلوا العنبر والصندل والمسك والمر الحجازى والتمر الهندى وجوز الطيب والقرنفل والقرفة والكراوية والجنزبيل والصمغ العربى وكثير غيرها فى أدويتهم ، وكانوا أول من استعمل السوائل المعطرة لحل الأدوية كماء الورد والليمون والبرتقال واليانسون ، وحسنوا الأدهان والمراهم وعرفوا فوائد الحقن الشرجية وعمموا استعمالها . وكانوا أول من استخدم الزئبق فى المراهم . وقد وردت أنباء تفيد أنهم استعملوا الحيوان لغرض التجارب العلمية .

أما فى الباثولوجيا والفسيولوجيا فكانت نظرية الأخلاط الأربعة التى توارثوها عن أبوقراط وجالينوس هى السائدة فكانوا على ضوئها يبنون وظائف الجسم وأسباب المرض فلم يتمكنوا من استحداث شيء جديد فيها .

أما فى الطب العام فقد أحدثوا الكثير من الآراء الجديدة فى العلاج فاستعملوا الفصد والتدبير بواسطة الطعام (الرجيم) وهذا أصبح الآن من مستحدثات الطب فى عصرنا الحاضر ، ثم استعملوا الأفيون فى معالجة الجنون ، وكادوا يعرفوا الجراثيم ، وعرفوا الوقاية من الأمراض المعدية ، وهم أول من وصف مرض الحصبة وأول من كتب عن الجذام ، ووصفوا الكثير من الأمراض كالجدرى وطرق معالجتها وارتقت مهنة الطب وأصبح التخصص فيها من مستلزماتها وكان العرب أول من أنشأ مدارس الطب والمستشفيات على الأسس المعروفة الآن .

أما فى أمراض العيون فقد نبغوا فى معرفتها وعلاجها وكانت مؤلفاتهم فيها خيرما كتب فى موضوعها حتى عصر النهضة ، فوصفوا أبرة الماء الازرق (جلوكوما) واستنبطوا الكثير من الآلات المستعملة فى جراحتها وقدحوا العين واستخرجوا منها العدسة (فى مرض الكتاراكت أو الماء الأبيض). وأشهر كتبهم فى الكحالة كتاب حنين بن اسحق (العشر مقالات فى العين) وكتاب « تذكرة الكحالين » لعيسى بن على . وفى المرئيات كاد ابن الهيثم أن يكتشف النظارات التى تستعمل للبصر .

أما عن المستشفيات فكانت البيمارستانات فى العهد الإسلامى دوراً للعلاج ومركزاً لدراسة الطب كأحدث المستشفيات الآن ، وقد انشىء أول بيمارستان (بيمار = مريض ، ستان = محل) فى الاسلام عام ٨٨ هـ ٧٠٧ م أنشأه الخليفة الوليد ابن عبد الملك بدمشق ، كما أن آخر بيمارستان أنشىء بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٣ هـ وسمى البيمارستان المنصورى ، وظل هذا البيمارستان قائماً يؤدى وظيفته إلى أيام حملة نابليون ، ثم ضعف شأنه وتحول إلى مستشفى للمجاذيب (من هنا نشأت الكلمة العامية مارستان بمعنى مستشفى للمجاذيب) ثم نقل منه المجانين وقبل نهاية القرن الحالى استلمته وزارة الأوقاف وحولته إلى مستشفى الرمد ويعرف الآن باسم مستشفى قلاوون ويعتبر من أقدم المستشفيات فى العالم.

وقد بلغ عدد أمثال هذه المستشفيات فى الامبراطورية الإسلامية أربعة وثلاثون موزعة فى أنحائها ، وكان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق وقرطبه والقاهرة والمستشفى الذى أسسه النسطوريون فى جند يسابور .

وكان فى المستشفى المنصورى الذى سبقت الإشارة إليه عنابر للطب وأخرى للجراحة والحيات ، تبرد بالنواقير وكان بها على ما يقول المؤلف جوترى مكتبة يشرف عليها ستة أمناء ، وحديقة لإستنباط الأعشاب الطبية ومستوصف وساحات للمحاضرات ، وكان به خمسون قارئاً للقرآن يرتلونه بالليل وبالنهار ، وكانت الموسيقى تعزف به بالليل ألحاناً هادئة لجلب النوم ، وكان بالمستشفى فئة من رواة الأقاصيص لتسلية المرضى ، وكان كل مريض يعطى عند مبارحته المستشفى مبلغاً من المال يعينه على اجتياز فترة النقاهة إلى أن يتيسر له استئناف العمل .

إلا أن عوامل الاضمحلال كانت قد بدأت فى الامبراطورية العربية ، فعندما افتتح المستشفى المنصورى بالقاهرة عام ١٢٨٤ ، كانت قرطبة قد اجتاحتها فعلا أقدام البرابرة الغزاة ، وكانت بغداد قد سبقتها إلى هذا المصير قبل عشرون عاما عندما دمرها المغول .

ودب دبيب الشيخوخة فى هذه الامبراطورية بعد عظمة دامت قرابة سبعمائة عام كان لها فضل عظيم فى التطور الطبى والعلمى والحضارى .

ويقول ماكس مايرهوف فى كتابه تراث الإسلام ان الطب الإسلامى قد عكس ضوء الشمس الغاربة فى اليونان وتلألأ كالقمر فى سماء العصور المظلمة . وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها وأضاء سناها ظلمة هذه السماء ثم أفل القمر وخبا ضوء النجوم فى فجر عهد النهضة . . لكن أثرها بقى فى الحضارة حياً حتى الآن

الحروب الصليبيـــة

كان الطب فى أوربا فى أيام النهضة الإسلامية وقبلها بعد زوال الحضارة الرومانية فى القرنين الخامس والسادس فى حالة يرثى لها ، إذ تحول إلى شعوذة ودجل وتجارة للسموم وأدوية للحب ، وهكذا بقيت أوربا فى غياهب الجهل حتى قيام الحروب الصليبية التى شبت نارها عام ١٠٩٧ م وامتدت حتى عام ١٢٩١ ، ويمكن أن نقول أنها تباطأت وتلكأت فى تأثيرها حتى اكتشافات كولمبس ، وليس هنا مجال القول عما تخلل هذه الحروب من حقد وحب وبطولة وبسالة ومروءة ، إنما أود أن أشير ببعض من تأثيرها على شرق أوربا فربما أوجز وصف لها هو دخول الغرب إلى الشرق وربما كان العكس أصح وهو تغلغل روح الإسلام إلى شرق أوربا .

وكان من نتائج الحروب الصليبية المباشرة على المسيحية هو تقارب الكنيستين الغربية اللاتينية والشرقية البيزنطية ، كما أنها حررت المسيحية من كثير من سخافات القرون الوسطى وعقائدها الوثنية وجعلت للدين المسيحى عمقا وبعدا ولولا هذه الحروب لأصبحت المسيحية فى حالة خطرة .

كانت هذه الحرب من العوامل الهامة فى نقل العلوم العربية وخاصة الطب إلى أوربا ، فقد حمل كثير من المرضى والأطباء وغيرهم من العائدين إلى أوطانهم الكثير من الوصفات الطبية والعقاقير العربية وقد وصلتنا أخبار تدل على أنه كان هناك اتصال مستمر بين أطباء ومرضى الفريقين المتحاربين .

ولقد أحضر الصليبيون كلمات عربية كثيرة إلى أوربا والكثير من فنون الحرب والحصار والقلاع وحمام الرسائل وبعض من أنواع النباتات الخاصة بحوض شرق البحر الأبيض المتوسط كالسمسم والخروب والأذرة والأرز والليمون والشمام والبطيخ والمشمش ، كما أدخلت مصنوعات الشرق إلى الغرب كغزل القطن والموسلين من الموصل والدماسين من دمشق والأطلس والطنافس ذات الوبر والمنسوجات ، كذلك صناعة الألوان واللاكيه والصبغات والأدوية والتوابل والعطور والشبة والمر والقرنفل والنيلة وخشب الصندل والملابس مثل العبك والجبة Jupe والمساحيق والمرايا الزجاجية وصناعة الفخار والزجاج حتى السبح وقد انتشرت عند المسيحين وقد وصلت اليهم عن طريق المسلمين من البوذيين بالهند ، وسكت عملة ذهبية فى البندقية صالحة للتجارة وكان على أحد وجهيها كتابات بالعربية وبالجهة الأخرى باللاتينية وقد استعملت حتى عام ١٢٤٩ .

وجدت هذه العملة بكثرة فى روسيا وفنلندا والسويد والنرويج والجزر البريطانية وايسلندة ومقاطعات بحر البلطيق، وأن وجود هذه العملة بهذه الكثرة يدل على النفوذ الثقافى الإسلامى . وكانت بلغاريا هى السوق الرئيسية للتجارة بين الشرق والغرب ، إذ ابتاع العرب الكثير من منتجات الشمال الغربى كالفراء الثمين والشمع والسهام والخشب النادر والأصداف والمسك والعنبر والسيوف وكان معظم الأرقاء يبتاعون من الشعوب السلافية كجوار للقصور ، ولصق بهم الاسم إلى هذا اليوم Slaves وقد لعب هؤلاء العبيد البيض دوراً كبيراً فى رقى وتمدين دول أوربا عند عتقهم ورجوعهم إلى أوطانهم .

وقد فكر بعض أوائل الخلفاء العباسيين فى شق قناة السويس ولكن الحروب الصليبية قضت نهائياً على هذه الفكرة .

وهكذا نرى أن الحروب الصليبية كان لها الفضل الأكبر فى دخول العلوم

والمعارف والثقافة الإسلامية إلى أوربا ، ويعتقد بعض المؤرخين أن الحافز القوى لهذه الحروب لم يكن هو تحرير بيت المقدس بل كان سد غور الحضارة الإسلامية والاغتراف من منهلها .

عصر الترجمة إلى اللاتينيـــة

وكان أول اتصال بين الشرق والغرب فى عصر النهضة الإسلامية فى أيام الرشيد وقد جاء فى كتب التاريخ أنه اتصل بمعاصره شارلمان ملك فرنسا وتبادل معه الرسل والهدايا ، وجاء أيضا أن شارلمان طلب الاستعانة بالأطباء العرب وأدخلهم فى خدمته .

وقد كانت الفتوحات العربية سببا فى اتصال العرب بشعوب الغرب وخاصة فى أسبانيا وجنوب ايطاليا حيث أصبحت مدينة سالرنو مركزا من مراكز الثقافة الهامة فى أوربا عام ١٠١٦ م وفى ذلك الوقت كانت صقلية قد مضى على احتلالها بيد العرب قرابة مائتى عام وأصبحت معقلا من معاقل الثقافة الإسلامية حيث أنشأ العرب فى مدينة بالرمو عاصمة صقلية أول مدرسة للطب وكان كثير من الأساتذة فى سالرنو من العرب أو من اليهود الذين تشبعوا بالثقافة العربية الإسلامية مثل ثباتى بن ابراهيم المشهور باسم دونولو ، وعن طريق هؤلاء الأساتذة العرب انتشرت ثقافة الإسلام .

اقترن اسم جامعة سالرنو بأسماء بعض المترجمين المشهورين الذين نقلوا علوم العرب إلى اللغة اللاتينية وأهم هؤلاء المترجمين قسطنطين الأفريقى ، ولد فى تونس عام ١٠٢٠ م ، درس الطب فى صباه وكان كثير الترحال حيث زار سورية والهند والحبشة ومصر وألم بكثير من اللغات الشرقية ، ثم رحل إلى أوربا وأقام قليلا بصقلية ، ثم حداه ميله للدراسة والاطلاع إلى التوجه إلى سالرنو (وهذه بجوار نابولى وكانت فى ذلك الوقت همزة الوصل بين الشرق والغرب إذ تغلغل عن طريقها الطب العربى إلى أوربا) وبعد قليل أصبح أعظم الأساتذة وأشهر الأطباء بها ، ثم ترك مدرسة الطب والتحق عام ١٠٧٠ بدير مونت كاسينو وكرس ما بقى من حياته حتى وفاته عام ١٠٨٧ م للدراسة والترجمة . وقد ترجم كثيراً من كتب

العرب الشهيرة التى سبق الإشارة اليها إلى اللغة اللاتينية ، وتبعه فى ذلك تلميذه يوحنا الفاسى ١٠٤٠ — ١١٠٠ فترجم بعض كتب الطب العربى .

ومن أشهر مترجمى مدرسة سالرنو فرج بن سالم ، كان من يهود صقلية وقد أتم نقل كتاب الحاوى الرازى إلى اللغة اللاتينية عام ١٢٧٩ وقد نقل أيضاً بعض مؤلفات حنين بن اسحق وابن جزلة .

وقد أحصى عدد المترجين الذين التحقوا بسالرنو منذ عهد قسطنطين وإلى عهد سقوطها عام ١١٩٤ م فى يد هنرى السادس وتدهور الحركة العلمية فيها فبلغوا ثلاثة وعشرون ناقلا . وبعد سقوط سالرنو انتقلت الحركة العلمية إلى نابولى ، فبلغت ذروتها فيها فى أوائل القرن الثالث عشر ، ثم تحولت دفة العلم والطب إلى مونبلييه فى فرنسا وبالرمو فى صقلية .

أما فى بلاد الأندلس فقد أنشأ البطريق ريموند عام ١١٣٠ م حركة للترجمة بطليطلة (توليدو) وساعد على نشوء هذه الحركة فرار اليهود والمسيحيين من اضطهاد أمراء الموحدين، وكانت الحركة العلمية فى قرطبة فى ذلك الحين قد بلغت ذروتها .

وكان الفضل الأكبر فى الترجمة فى ذلك لجيراود الكريمونى ١١١٤ — ١١٨٧ م وكان بارعا فى الترجمة مالكا لناصية العربية واللاتينية . وترجم فى حياته سبعين كتابا من كتب الطب والعلوم العربية الأخرى إلى اللاتينية وأهم ترجمة قام بها هى نقله لكتاب القانون لابن سيناء والمنصورى الرازى والثلاثة أجزاء الخاصة بالجراحة من كتاب التصريف للزهراوى . وهناك مترجمون غيره كثيرون منهم ماركوس ، وابن داوود ، ودومنيكا جونزالس وقد نقلوا مؤلفات علماء الفلك المشهورين من العرب وكذلك كتب الفلسفة .

القرن الثالث عشر

وهكذا فى مطلع القرن الثالث عشر أخذت أوربا فى هضم علوم العرب وتمثيل هذا التراث الثمين وطبعه بطابعها الخاص فبدأت الحركة الفكرية من جديد وأشرق نور المعرفة باستهلال عصر النهضة المعروف بالرينسانس فى القرن الخامس عشر .

وقد بلغ من شيوع التعليم حينئذ أن أنشئت ثمانون جامعة فى أوربا بين

عام ١٢٠٠ والقرن السادس عشر ، وكانت جامعة سالرنو هى الأولى ، وكان مستوى التعليم فيها عاليا وكانت تحتم على الطالب بها أن يكون قد قضى ثلاث سنوات فى دراسة المنطق ، وكان خريجها يقضى بين خمسة وسبعة أعوام يمنح بعدها درجة علمية ، ويعطى كتابا ويوضع له فى أصبعه خاتما وتطبع على جبينه قبلة وعندئذ يستحق لقب دكتور . وكانت سالرنو أول جامعة أوروبية منحت مؤهلا علميا . وكان الفضل فى ازدهارها يرجع إلى الأساتذة العرب والطب العربى .

وهكذا نرى أن العرب قد حملوا الشعلة بعد أن التقطوها مطفأة من العصور السالفة ، فأوقدوا نارها ونفخوا فيها من روحهم وسلموها لمن أتى بعدهم لتضىء وتشع وتشيد بمجد الحضارة العربية القديمة ، فهلا قام اليوم العلماء والأطباء فى الشرق واهتموا بإعادة هذا المجد القديم .

مصادر ومراجع

١ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — ابن أبى أصيبعة — القاهرة ١٨٨٢

٢ — القانون فى الطب — ابن سينا ٣ أجزاء — القاهرة ١٢٩٤ هـ

٣ — العشر مقالات فى العين لحنين بن اسحق — طبع بإشراف ماكس مايرهوف .

٤ — تاريخ الطب عند الأمم الحديثة والقديمة — عيسى اسكندر المعلوف .

٥ — الطب فى أيام العرب — محمود صدقى ١٩١٠

٦ — الطب العربى — زكى على ١٩٣١

٧ — الطب العربى — أمين سعد خير الله — بيروت ١٩٤٦ .

٨ — مقدمة فى تاريخ الطب العربى — التيجانى الماحى ١٩٥٩ .

٩ — مآثر العرب فى العلوم الطبية — سامى الحداد — بيروت ١٩٣٦ .

١٠ — دعوة الأطباء لابن الحسينى بن بطلان — بشارة زنزل .

١١ — الطب عند العرب — أحمد شوكت الشطى — مؤسسة المطبوعات الحديثة .

١٢ — الثقافة الطبية والطب النسائى فى عهد العرب — نجيب محفوظ — مطبعة مصر ١٩٥٣

١٣ — قصة الطب عند العرب — أحمد حسنين القرنى — الدار القومية للطباعة والنشر .

١٤ — وحدة الثقافة الطبية بين مصر وسورية — فهيم أبادير — محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

١٥ — نصيب العرب فى تقدم الطب والحضارة — فهيم أبادير — مجلة الأطباء ١٩٦٤ .

١٦ — ابن النفيس بقلم بول غليونجى — الدار المصرية للتأليف والترجمة .

١٧ — الإسلام والطب — محمد عبد الحميد البوشى — الدار المصرية للتأليف والترجمة .

١٨ — العرب والحضارة الأوربية — محمد مفيد الشوباشى — دار القلم بالقاهرة .

١٩ — الطب عند قدماء المصريين — بول غليونجى — دار المعارف بمصر .

٢٠ — طب وسحر — بول غليونجى — دار القلم بمصر .

٢١ — الطب المصرى القديم تأليف نجيب رياض .

٢٢ — قصة الطب تأليف جوزيف جارلند ترجمة سعيد عبده — دار المعارف بمصر .

٢٣ — رواد الطب — كاترين شين ترجمة م . عيسى — مكتبة النهضة بمصر .

٢٤ — أبو قراط — فهيم أبادير — مجلة اسكندرية الطبية — ابريل ١٩٥٥

٢٥ — الجراحة فى مصر القديمة — محى الدين الخزاولى — محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٥٦

٢٦ — الصيدلة فن وعلم — جورج العق — دار المعارف بمصر .

المراجع الأجنبية

1 — Hitty, Philip: History of the Arabs, London, Macmillan 1949.

2 — Brown, Edward G.: Arabian Medicine, Cambridge Univ. Press 1921.

3 — Cambell, Donald: Arabian Medicine, London Kegan Trench & Co. 1926.

4 — Meyrhoff, M.: Science and Medicine. In the Legacy of Islam, Oxford. The Clarendon Press, 1931.

5 — De Lacy O'Leary: How Greek Science passed to the Arabs, London, Stephen Austin & Sons 1949.

6 — Abadir, F. M.: The Ancient Alexandria School of Medicine, A. M. J. Jan. 1955.

7 — Abubakr, A. & Abadir, F.: Diseases in Prehistoric Egypt: International Forum. Volume 3, Number 2.

8 — Georgy Sobhy: A short account of Ancient Egyptian Medicine.

9 — Castiglioni, A.: A History of Medicine, New-York Knopf, 1941.

طبع بمطابع شركة العبوات الدوائية